

أعلام مصر

التاريخ	أسماء الأعلام	٢١	التاريخ	أسماء الأعلام	٢٢
١٢٥٠-١٣١٥ هـ	حسن الطويل	١٣	١١٨٠-١٢٥٠ هـ	حسن المطار	١
١٢٥٠-١٣٢٧ هـ	مصطفى السفلى	١٤	١٢١٧-١٢٩٤ هـ	محمد أبو الفتح	٢
١٢٥٠-١٣٢٥ هـ	أحمد الرفاعي	١٥	١٢١٨-١٣٢١ هـ	محمد الأشموني	٣
١٢٥١-١٣٢٣ هـ	علي محمد البيلاوي	١٦	١٢٢١-١٢٨٣ هـ	إبراهيم مرزوق	٤
١٢٥٥-١٣٤٣ هـ	حسونة النواوي	١٧	١٢٢٧-١٢٨٠ هـ	محمد عياد الطنطاوي	٥
١٢٦١-١٣١٤ هـ	عبد الله نديم	١٨	١٢٣٦-١٣١٣ هـ	علي اللبني	٦
١٢٦٦-١٣٢٣ هـ	محمد عبده	١٩	١٢٤١-١٣٠٦ هـ	محمد الطنطاوي	٧
١٢٦٨-١٣٢٤ هـ	أحمد أبو خطوه	٢٠	١٢٣٤-١٣١٥ هـ	محمد العباسي المهدي	٨
١٢٧٤-١٣٢٦ هـ	أحمد مفتاح	٢١	١٢٤٣-١٣١٠ هـ	أحمد أبو الفتح الدمنهوري	٩
١٢٨٠-١٣٤٣ هـ	محمد أكمل	٢٢	١٢٤٤-١٣٠٠ هـ	زين المرصفي الشافعي	١٠
١٢٩٣-١٣٦٤ هـ	محمد الإدريسي	٢٣	١٢٤٥-١٣٠٠ هـ	حسن عبد الباسط الحوي	١١
	عبد الحميد نافع	٢٤	١٢٥٠-٣١١ هـ	رضوان محمد المخلاقي	١٢

حَسَنُ الْعَطَّارِ

١١٨٠ هـ — ١٢٥٠ هـ

هو العلامة شيخ الإسلام الشيخ حسن بن محمد العطار المصري ، المولود بالقاهرة في حدود سنة ١١٨٠ هـ ١٧٦٦ م . ونشأ بها في رعاية والده الشيخ محمد كتن . سمع من أهله أنه مغربي الأصل . قدم بعض أسلافه مصر واستوطنوها ، وكان والده عطاراً صغيراً له إلمام بالعلم .

وكان في أول أمره يستصحبه إلى الدكان ، ويستخدمه في صفار شئونه ، ويعلمه البيع والشراء . ولشدة ذكائه وحدة فطنته كان يميل إلى التعليم ، وتأخذه الفيرة عند رؤية أثرابه يترددون إلى المكاتب ، فكان يختلف إلى الجامع الأزهر لحفظ القرآن الكريم .

ولما رأى والده فيه هذه الرغبة إلى التعلم ، ساعده حتى أتم حفظ القرآن في مدة يسيرة ، ثم أقبل على طلب العلم ، وجدّ في التحصيل على كبار المشايخ كالشيخ الأمير والشيخ الصبان وغيرهما ، حتى بلغ من العلوم في زمن قليل ما هياه للتدريس ، وزادت رغبته في التزود بكثير من العلوم المختلفة ، فعكف على دراستها وإتقانها .

ولما دخل الفرنسيون مصر غادر القاهرة مع جماعة من العلماء إلى الصعيد ،

ثم عاد إليها إبان احتلالهم الممقوت ، فقرّبوه منهم ، واتصل بعلمائهم ، فأفادهم واستفاد منهم . وكان يتنبأ لمصر بتقدّم عمراني وثقافي .

ثم سافر إلى الشام ، وأقام بدمشق بالمدرسة البدرية زمناً ، ومدحها بقصيدة

أولها :

بِوَادِي دِمَشْقِ الشَّامِ جُزْ بِي أَخَا الْبَسْطِ وَعَرَّجٌ عَلَى بَابِ السَّلَامِ وَلَا تُخْطِي
وَلَا تَبْكِي مَا يَبْكِي أَمْرُ الْقَيْسِ حَوْمَلًا وَلَا مَنْزِلًا أَوْدَى بِمَنْعَرَجِ السَّقَطِ
فَإِنَّ عَلَى بَابِ السَّلَامِ مِنَ الْبَهَا مَلَابِسَ حُسْنٍ قَدْ حَفِظْنَ مِنَ الْعَطَا
هَنَالِكَ تَلْقَى مَا يَرُوقُكَ مَنَظَرًا وَيُسْلِي عَنِ الْأَخْذَانِ وَالصَّحْبِ وَالرَّهْطِ

ومنها :

وَقِفْ بِي بِجِسْرِ الصَّالِحِيَّةِ وَقِفَةً لَا قَضِي لُبَّانَاتِ الْهَوَى فِيهِ بِالْبَسْطِ
وَعَرَّجٌ عَلَى بَابِ الْبَرِيدِ تَجِدُ بِهِ مَرَاصِدَ الْعَشَّاقِ فِي ذَاكَ الْخَطِّ
وَحَازِرِ سُوَيْفَاتِ الْعِمَارَةِ إِنَّهَا مَهَالِكُ لِلْأَمْوَالِ تَأْخُذُ لَا تَعْطِي

إلى أن قال :

وعندي من التأليف شيء وضعته على شرح قانون الحفيد أخى السبسط
ثلاث مقالات كبار وضعنها لتعريف حال الكي والفضد والبسط
وجزء على شرح المبرد كامل أبين فيه غامض النص بالقط
وألفت في علم الجراحة نبذة لتعريف أكل الفول بالقطع والخط

ومن شعره :

إنى لأكره فى الزمان ثلاثة ما إن لها فى عدّها من زائد
قرب البخيل ، وجاهلاً متفاضلاً لا يستحي ، وتودّكاً من حاسد
ومن الرزية والبليّة أن ترى هذى الثلاثة جُعتْ فى واحد
ومن خطه فى بعض مجموعاته : « اتفق لى أنى ، بعد قضاء حجّى توجّهتُ
مع الركب الشامى ، فوصلت إلى « معان » . ثم لبلدة « الخليل » ، فأقمتُ بها
نحو عشرة أيام ، ثم توجّهت إلى القدس الشريف ، فنزلت بدار نقيبها السيد
عمر أفندى ، وكان معزولاً عن نقابة الأشراف ، ومن عادته الاحتفال بالموسم
الموسوى ، وإطعام الفقراء ، وقبل حلول الموسم بيومين أُعيد إلى نقابة الأشراف ،
فنظمت قصيدة تهنئة له بعود المنصب :

الحمد لله على فضله	من بعد أن أشفقَ من محله
قد يطلب الحسناء من لم يكن	كفوّاً لها للحقّ فى عقله
فنصبُ المرء قرينُ له	والشكلُ مجذوبٌ إلى شكله

وبقية القصيدة فى الجزء الرابع من « الخطط التوفيقية » جزء ٤ ص ٢٩ .

ثم سافر إلى « استانبول » وأقام هناك مدة ، وتأهل بها وأعقب ولم يبق عقبه .
ولم يزل مشغولاً بالإفادة والاستفادة حتى عاد إلى مصر بعلوم كثيرة ، وأقرّ له
علماء عصره بالانفراد ، وعقد مجلساً لقراء تفسير البضاوى . وقد مضت مدة
على هذا التفسير لا يقرؤه أحد ، فحضره أكابر المشايخ ، والتفوا حول دروسه .
ولما حضر إلى مصر فى سنة ١٢٣٧ هـ « بطرس البستانى » مدحه بقصيدة

منها :

أما الذكاء فأنه أذكى وأبرع من « إياه »
أضحى « البديع » رفيقه لما تفرد في « جناسه »
في أي فن شئته فكأنه باني أساسه

وكتب عنه معاصره الشيخ محمد شهاب الشاعر قال : « كان آية في حدة
النظر وشدة الذكاء ، وكان يزورنا ليلاً في بعض الأحيان فيتناول الكتاب
الدقيق الخط الذي تعمس قراءته في وضوح النهار فيقرأ فيه على ضوء السراج ،
وربما استعار مني الكتاب في مجلدين فلا يلبث عنده إلا أسبوعاً أو أسبوعين
ويعيده إليّ وقد استوفى قراءته وكتب في طرده على كثير من مواضعه . »
وكان معاصراً له مؤرخ مصر الشيخ عبد الرحمن الجبرتي ، وقد ذكره
في تاريخه لمناسبة إعادة الشيخ شامل أحمد رمضان إلى مشيخة رواق الطرابلسية
وامتداح الشيخ العطار له ، وكان صديقاً له ، بقصيدة أولها :

انهض فقد ولت جيوش الظلام وأقبل الصبح سفير اللام
وغنت الورق على أيكها تنبه الشرب لشرب المدام
والزهر أضحى في الربى باسماء لما بكت بالطل دمع الغمام
مشيراً إلى أنها من قصيدة في ديوان الشيخ جاء في آخرها :

بشراك مولانا على منصب كان له فيك مزيد الهيام
واذاك إقبال به دائماً وعشت مسعوداً بطول الدوام
فقد رأينا فيك ما نرتجي لازلت فينا سالماً والسلام
وعندما وصف الجبرتي النكبة التي حلت بالأزبكية ودورها المحرقة

بالبركة وبأطرافها عند احتلال الفرنسيين قال : « وصارت كلها تلالا وخرائب كأنها لم تكن معنى صبايات ، ولا مواطن أنس ونزهات » واستشهد بقول العطار في وصفها إبان ازدهارها . وهذه عبارته (ص ٣٧ ج ٣ الجبرتي) :

« وفيها يقول صديقنا العلامة والنحرير الفهامة حسن العطار حفظه الله :

« وأما بركة الأربكية فهي مسكن الأمراء ومواطن الرؤساء ، قد أهدقت بها البساتين الوارفة الظلال ، المدينة المثال ، فترى الخضرة في خلال تلك القصور المبيضة ، كشياب سندس خضر على أثواب من فضة ، يوقد بها كثير من السروج والشموع ، فالأنس بها غير مقطوع ولا ممنوع ، وجمالها يدخل على القلب السرور ، ويذهل العقل حتى كأنه من النشوة مخور . ولعالمها مضت لى بالمسرة فيها أيام وليالى ، هن سخط الأيام من يتيم اللاكى . وأنا أنظر إلى انطباع صورة البدر فى وجنتها ، وفيضان لجين نوره على حافتها وساحتها ، والنسيم بأذيال ثوب مائها الفضى لثعاب ، وقد سل على حافتها من تلاعب الأمواج كل قرضاب ، وقام على منابر أدواحها فى ساحة أفراحها مفردات الطيور ، وجالبات السرور ، فلذيد العيش بها موصول . »

وكانت روضة معمر فى عصره مزدهرة ، وحولها دور العطاء والعلماء ،

وندواتهم ومكشباتهم ومتنزهاتهم . وفيها يقول العطار :

بالأربكية طابت لى مسرات ولذ لى بيديع الأنس أوقات
حيث المياه بها والفلك سابحة كأنها الزهر تحويها الممرات
وقد أدبر بها دور مشيدة كأنها لبدور الحسن هالات
معت عليها الروابى خضر سندسها وغردت فى نواحها حمامات

والماء حين سرى رطب النسيم به وحل فيه من الأدواح زهرات
كسابغات دروع فوقها نقط من فضة ، واحمرار الورد طعنات
مراتع لظباء الترك ساحتها وللأسود بها فيهن غيضات
وللنديم بها عيش تجمده أيدى الزمان ولا تخشى جنائيات
بروح منها صريع العقل حين يرى على محاسنها دارت زجاجات
وللرفاق بها جمع ومفترق لما غدت وهى للندمان حانات

بهذا الأسلوب الرائق وهذا الشعر الفائق يصف العطار بركة الأزبكية ،
ولا عجب فهو مصرى أولا وقاهرى تربى بالقاهرة ، فرق خياله ، ونعم بجمال
البركة الذى فتن كل من رآها فتغنى بجمالها .

ظل الشيخ حسن مصدر إشعاع لمختلف العلوم إلى أن ولى مشيخة الأزهر
عقب وفاة الشيخ محمد الشنوائى فى سنة ١٢٤٦ هـ فزانا وشرفها ، وظل شيخا
للأزهر إلى أن توفى فى آخر سنة ١٢٥٠ هـ وترك مؤلفات قيمة ، منها ما دونه
طيب الذكر يوسف سرركيس فى معجم المطبوعات العربية بعد أن ترجم
للشيخ ، وهى :

إنشاء العطار — فى المراسلات والمخاطبات وكتابة الصكوك والشروط
مما يحتاج إليه الخاص والعام . وقد طبع عدة طبعات . وهو مؤلف صغير
الحجم كبير الفائدة ، يشهد له بدقة الملاحظة وقوة الأسلوب ، وفيه الكثير
من أشعاره .

حاشية العطار — على التذهيب للخبيصى ، شرح التهذيب ،

وبهامشها الشرح المذكور وحاشية ابن سعد (منطق) — طبع ببولاق سنة ١٢٩٦ هـ .

حاشية العطار — على شرح إيساغوجي لأثير الدين الأبهري . وبهامش الشرح المذكور (منطق) طبع سنة ١٣١١ هـ .

حاشية العطار — على جمع الجوامع ، ثلاثة أجزاء ، طبع بمصر .
حاشيته على متن السمرقندية (بلاغة) طبع بالدهينة سنة ١٢٨٨ هـ .
حاشيته على شرح الأزهرية للشيخ خالد الأزهرى (نحو) طبع عدة طبعات بمصر .

حاشيته على شرح المقولات المسمى بالجواهر المنتظرات في عقود المقولات كلاهما للشيخ أحمد السجاعي ، طبع بمصر سنة ١٢٨٢ هـ .
منظومة العطار في علم النحو — في مجموع من مهمات الفنون ، طبع سنة ١٢٨٠ هـ .

وقد زاد المغفور له على باشا مبارك على ذلك من مؤلفات العطار : رسالة في كيفية العمل بالأسطرلاب والربعين المقنطر والمجيب والبساط ، ورسائل في الرمل والزارجة والطب والتشريح وغير ذلك . وذكر أنه كان يرسم بيده المزاويل النهارية والليلية .

وحدث الشيخ إبراهيم السقا أحد تلاميذه : أن بعض سكان مكة المكرمة ، المارين بمصر ، أعجبهم علم الشيخ العطار ، فأحبوا أن يقيم بينهم ليخلف فيهم « ابن حجر الهيتمي » وينتفعوا به وبعلمه ، فاجتمعوا به ، وما زالوا يحسنون له الرحلة حتى أجاب ، وأخذ في تجهيز نفسه ، وسمع تلاميذه بذلك ،

فاشند أسفهم ، ولم يكن فيهم من يجرؤ على منعه ، قال : فاحتلت بأن أخرجته بعد الدرس من صحن الأزهر ، ونحن في حَمَارَةِ الْقَيْظِ ، وأخذت أسأله بعض المسائل ، وأخرج من واحدة لأخرى ، وهو يرفع رجله ويضعها من شدة حر البلاط ، حتى تبين لى الضجر فى وجهه وانتهرنى ، فقلت : ياسيدى أنت لا تطيق حر الشمس وأنت بمصر ، فكيف لك بالحر فى مكة وهو هناك أضعاف ما هنا ؟ ففكر ثم جزانى خيراً . وفترت همته عن السفر .

وحدث أيضا الشيخ السقا قال : بينما نحن فى درسه إذ وقف على الحلقة رجل أعجمى بشع المنظر فى منطقته خنجر ، ثم (رطن) مع الشيخ بلغة لم نفهمها ، وكلما طال الكلام ازداد الرجل حنقا وحدة ، فترك الشيخ كراريسه وقال : أنا محتاج لتجديد وضوئى - ثم ذهب ولم يعد ، وانصرفنا ، وتبين لنا أنه من أقارب زوجته التى تزوج بها فى بلاد الترك ثم تركها ، فأخبرنا هو أن الرجل كان يهدده بالقتل .

وكان الشيخ العطار عالماً جليلاً ذائع الصيت فى مصر وسائر الأقطار العربية والشرقية ، وأديباً فريداً ، وشاعراً مجيداً . وكان مع ما اتصف به من حميد السجايا وطيب الخلال متواضعاً كريماً زاهداً وجيهاً أينما توجه وحيثما أقام - رحمه الله وأجزل مثوبته .

الشيخ حسن العطار^(١)

رائد البعث الأدبي في مصر الحديثة

الشيخ حسن العطار هو حسن بن محمد كتن المولود بالقاهرة سنة ١١٨٠ هـ ١٧٦٦ م على أرجح الأقوال . وهو يرتد إلى أصول مغربية . وقد اتصل بالفرنسيين اتصالاً علمياً ، كما اتصل بمحمد علي ، وولى تحرير « الوقائع العربية » بين (١٢٤٤ — ١٢٤٦ هـ — ١٨٢٨ — ١٨٣٠ م) ومشيخة الأزهر سنة ١٢٤٦ هـ وظل فيها حتى توفي سنة ١٢٥٠ هـ (١٨٣٥ م) .

وكان أبوه عطاراً فقيراً له إلمام بالعلم ، وكان يستصحبه إلى الدكان ويستخدمه في صفار شئونه ، ومن هنا جاءه لقب العطار . وكان يميل إلى التعلم وتأخذه الغيرة عند رؤيته أترابه يترددون إلى المكاتب ، فكان يختلف إلى الجامع الأزهر خفية حتى قرأ القرآن في مدة يسيرة ، فلما علم أبوه بذلك بارك اتجاهه وشجعه ، فجد في التحصيل حتى بلغ من العلوم في زمن قليل مبلغاً تميز به ، واستحق التصدي للتدريس ، لكنه مال إلى الاستكمال ، فاشتغل بفرائب الفنون والتقاط فوائدها .

والواقع أن مفتاح شخصية العطار يكمن في حبه الأصيل للعلم . وكلف العطار بالمعرفة والتعلم هو الذي جعله فذا بين أقرانه تلميذاً وأستاذاً ، وهو الذي صاحبه في كافة مراحل حياته وجعله حدثاً في عصره .

(١) وقد عثرنا على ترجمة أخرى له بهذا العنوان بقلم الأديب الكبير الأستاذ سامي بدراوى - نشرها في (المجلة) التي تصدر في القاهرة . فأبنتناها بنصها .

كان الرجل قارئاً نهماً ، وكان إلى ذلك بحسن الانتفاع بما يقرأ ، حتى اشتهر عنه ذلك ، فألى جانب النص السابق الذى يسجل أنه كان ميالا إلى الاستسكال مشغلا بغرائب الفنون والتقاط فوائدها نجد أحد أصدقائه ، الشيخ محمد شهاب يقول : « إن الشيخ العطار كان آية في حدة النظر وشدة الذكاء ، ولقد كان يزورنا ليلا في بعض الأحيان فيتناول الكتاب الدقيق الخط الذى تتمسر قراءته في وضوح النهار فيقرأ فيه على نور السراج وهو في موضعه ، وربما استعار منى الكتاب في مجلدين فلا يلبث عنده الأسبوع أو الأسبوعين ويميده إلى وقد استوفى قراءته وكتب في طرره على كثير من مواضعه » .

وقد اتصل العطار بالفرنسيين إبان الحملة ليعلم أحدهم اللغة العربية ، فكان يستفيد منهم الفنون المستعملة في بلادهم فيما يقول على مبارك ، وقد أشار العطار نفسه إلى ذلك في مقامته إن جاز أن نعتبرها مصدراً ، وإن غضضنا الطرف عن فكرة أنه ساقها على لسان راو صديق ، يقول في موضع منها معدداً الكتب التى رآها عند الفرنسيين : « وكلها فى العلوم الرياضية والأدبية ، وأطلعونى على آلات فلكية وهندسية » ، وفى موضع آخر من نفس المقامة يشير إلى حب الفرنسيين للفلسفة وحرصهم على اقتناء كتبها وإعمال الفكرة فيها .

وإلى جانب صلة العطار بالفرنسيين فى مكتباتهم ومصانعهم ، فقد كان للعطار ولع بقراءة الكتب المترجمة عن اللغات الأوربية ، خاصة فى علمى التاريخ والجغرافيا حتى اشتهر عنه ذلك ، والعطار نفسه يقول فى هذا المنبع من منابع ثقافته :

« وقع في زمننا أن جلبت كتب من بلاد الأفرنج ، وترجمت باللغة التركية والعربية ، وفيها أعمال كثيرة وأفعال دقيقة اطلعنا على بعضها ، وقد تتحول تلك الأعمال بواسطة الأصول الهندسية والعلوم الطبيعية من القوة إلى الفعل ، وتكاملوا في الصناعات الحربية والآلات النارية ومهدوا فيها قواعد وأصولاً حتى صار ذلك علماً مستقلاً مدوناً في الكتب ، وفرعوه إلى فروع كثيرة ، ومن سمت به همته إلى الاطلاع على غرائب المؤلفات وعجائب المصنفات انكشفت له حقائق كثيرة من دقائق العلوم ، وتزهت فكرته إن كانت سليمة في رياض الفهم » .

وإلى جانب اتصال العطار بالثقافة الغربية عن طريق الاحتكاك المباشر أولاً ، ثم عن طريق الكتب المترجمة ، فإن الرجل قد توفرت له وسيلة ثالثة : هي الرحلة ، إذ ذهب إلى الشام وفلسطين وتركيا ، « ولم يزل مشتغلاً بالإفادة والاستفادة حتى عاد إلى مصر بعلوم كثيرة ، وأقر له علماء مصر بالانفراد » . وليس واضحاً في كل ما كتب عن الشيخ العطار سبب هذه الرحلة ، ولكن يبدو أنه اضطر إليها بعد أن ساءت علاقاته بالفرنسيين .

فلما عاد العطار إلى مصر في عهد محمد علي ، عاد موسوعياً في ثقافته وعلمه ، يطاول علماء الأزهر الأفذاذ ، ويمتليء حماسة لتطوير البلاد وإصلاح أحوالها . ويمكن إجمال جهود العطار الإصلاحية في ثلاثة ميادين هي : التعليم والثقافة ، ثم الأدب واللغة ، ثم السياسة .

أما في مجال التعليم والثقافة ، فقد اتخذت جهود الرجل عدة مظاهر :

أولها أنه جعل ينه الأزهرين في عصره إلى واقعه الثقافي والتعليمي ، وبين ضرورة إدخالهم المواد المتنوعة كالفلسفة والأدب والجغرافيا والتاريخ والعلوم الطبيعية ، كما بين ضرورة إقلاعهم عن أساليبهم في التدريس ، ووجوب الرجوع إلى الكتب الأصول وعدم الاكتفاء بالمختصات والمتون المتداولة ، ويتوصل إلى ذلك بكل وسيلة . يقول مبيناً الفارق بين علماء عصره والعلماء الأفذاذ الذين عرفهم العالم العربي قبل عصر العطار ، ومخطما أ كذبوبة تحريم الدين الإسلامي لبعض العلم :

« .. من تأمل ما سطرناه وما ذكر من التصدي لتراجم الأئمة الأعلام ، علم أنهم كانوا - مع رسوخ قدمهم في العلوم الشرعية والأحكام الدينية - لهم اطلاع عظيم على غيرها من العلوم ، وإحاطة تامة بكلياتها وجزئياتها حتى في كتب المخالفين في العقائد والفروع .. ثم هم مع ذلك ما خلوا في تنقيف ألسنتهم وترقيق طباعهم من رقائق الأشعار ولطائف المحاضرات ..

وفيما انتهى إليه الحال في زمن وقمنا فيه - علم أن نسبتنا إليهم كنسبة عامة زمانهم ، فإن قصارى أمرنا النقل عنهم بدون أن نخترع شيئاً من عند أنفسنا ، وليتنا وصلنا إلى هذه المرتبة ، بل اقتصرنا على النظر في كتب محصورة ألفها المتأخرون والمستمدون من كلامهم نكرها طول العمر ، ولا تطمح نفوسنا إلى النظر في غيرها حتى كأن العلم انحصر في هذه الكتب ، فلزم من ذلك أنه إذا ورد علينا سؤال من غوامض علم الكلام تخلصنا منه بأن هذا كلام الفلاسفة ولا ننظر فيه ، أو مسألة أصولية قلنا لم نرها في « جمع الجوامع » فلا أصل لها ، أو نكتة أدبية قلنا هذا من علوم أهل

البطالة . وهكذا فصار العذر أقيح من الذنب .. وهذه نفثة مصدور .

وقد بدأ العطار يخرج على هذا الجود العلمى الأزهرى بتدريسه المواد المنوعة . إذ بدأ يدرس الجغرافيا والتاريخ فى الأزهر وخارج نطاق الأزهر . كما كان تلميذه محمد عياد الطنطاوى يدرس الأدب فى الأزهر بإيحاء العطار وتحت إشرافه فى « مقامات الحريرى » حوالى سنة ١٨٢٧ م . كما بدأ تلميذه رفاعه الطنطاوى أيضاً يدرس الحديث والسنة بطريق المحاضرة وبلا نص ، مما كان مثار إعجاب العلماء . وفى الخطاط التوفيقية أن العطار « عقد مجلساً لقراء تفسير البيضاوى ، وقد مضت مدة على هذا التفسير لا يقرؤه أحد ، فحضر ، أكابر المشايخ ، فكانوا إذا جلس للدرس تركوا حلقتهم وقاموا إلى درسه » . ولعله بذلك يكون قد بدأ ما لجأ إليه الأفغانى ومحمد عبده من إعادة تفسير القرآن فى ضوء الظروف المعاصرة . والمهم أن هذا النص يدل على أن التربة من حول العطار لم تكن مواتاً تماماً ، فإن قيام زملائه الشيوخ إلى حلقتهم ، مع اشتداد معارضتهم له ونقمتهم عليه لنزعتهم التجديدية ولحملانه على تقصيرهم العلمى ، هو أمر له دلالة ، كما أنه وثيقة تشهد بمقدرة هذا العالم الفذ .

فكان الشق الأول من دعوة العطار الإصلاحية ، كان يتمثل فى مناداته بضرورة تطوير التعليم الأزهرى من حيث المناهج ومواد الدراسة ، وذلك بالرجوع إلى المصادر الأصلية وتدريس المواد المنوعة ، وهو ما يمكن أن نعبر عنه بالدعوة إلى ضرورة بعث التراث العربى القديم . وهى دعوة حاول العطار نفسه الإسهام فى تنفيذها ، إذ لم يكن يكف عن البحث والتنقيب فى

هذه المراجع القديمة ، وإشراك خاصة تلاميذه في ذلك . ولقد كان الأزهر أكبر المعامل العلمية في ذلك الوقت ، فحديث العطار عن التعليم الأزهرى وقصوره حديث عن الحالة الثقافية عامة في البلاد .

المظهر الثانى لحركة الشيخ العطار التجديدية في مجال الثقافة والتعليم يتمثل في دعوته إلى إدخال العلوم العصرية ، وعبارته في ذلك معروفة « إن بلادنا لا بد أن تتغير أحوالها ويتجدد بها من المعارف ما ليس فيها » . والشيخ العطار لم يقتصر في دعوته على مجرد التبشير بأفكاره الإصلاحية ، إنما هو يردف القول بالعمل ، فألى جانب تدريسه وتأليفه في العلوم العربية نجده يكتب في المنطق والفلك والطب والطبيعة والكيمياء والهندسة ، يتضح ذلك من قائمة مطبوعاته ، ومن إشاراته إلى إعجابه بما رأى عند الفرنسيين وخاصة تحويلهم علومهم إلى عمل . وفضلا عن ذلك فإن استعراض قائمة مطبوعات بولاق حتى سنة ١٨٣٥ تدل على أن عدداً وافراً من المطبوعات في جميع المواد المذكورة كان قد طبع . بل إن العطار كان يتردد على المرصد الذى أنشأه الفرنسيون ، كما « كان يرسم بيده المزاوِل النهارية والليلية » . وقد حفلت شروح الرجل وحواشيه على الكتب المختلفة بتعليقات في كافة العلوم الطبيعية والاجتماعية والإنسانية .

والجانب الثانى من جوانب حركة العطار هو التطوير الأدبى . وقد مر بنا أنه أفلح في إدخال الدراسة الأدبية إلى الأزهر على يدى تلميذه الطنطاوى ، كما أنه هو نفسه قد اعتنى بالأدب عناية خاصة . فلم يكن يتحرج من إنشائه ،

أو تدريسه ، وبين عدم تعارض ذلك مع وقار العلم أو جلال الدين ، مستشهداً
بالأسلاف العظام .

كان المطار يكتب النثر وينظم الشعر ، ويشجع تلاميذه على ذلك ، حتى
إن جمال أسلوبه كان سر اختياره أول محرر للوقائع العربية . وقد كتب المطار
مقامة على النسق القديم ، وإن كان موضوعها حديثاً ، فهي تدور حول علاقته
بالفرنسيين وانتفاعه بمكتبتهم . كما كتب كتاباً في فلسفة الإنشاء ، ضمنه
كل الأنواع الأدبية المعروفة لعهد ، وأردف كلامها بنماذج مختارة من
إنتاجه الخاص ، وهي أكثر أجزاء الكتاب حيوية ، إذ يسجل فيها خواطره
وانطباعاته التي تركتها في نفسه رحلاته ومعاملاته مع الناس الذين احتك بهم .
والكتاب بعد حافل بنماذج شعرية للرجل نفسه . وذلك هو كتاب « إنشاء
المطار » .

وفضلاً عن ذلك فتاريخ « الجبرتي » حافل بنماذج شعرية له ، وكذلك « كنز
الجوهر » و « اخطط التوفيقية » وغيرها من الكتب التي ترجمت له .

ويغلب على أسلوب المطار البساطة والسهولة والحرص على الفكرة ونقلها
إلى القارئ ، فالأسلوب عنده مجرد وسيلة للتعبير ، وليس غاية في ذاته ، ومع
ذلك فهناك في بعض كتابات الرجل السجع والمحسنات البديعية عموماً ، ومن
غريب الأمر أن ذلك يكثر حيث يقصد الرجل إلى الإنشاء الأدبي أو الكلام
في فلسفة الأدب ، ويقل في مؤلفاته العلمية حيث يسهل أسلوبه ويسلس حتى
ليوشك أن يكون معاصراً .

أما في الشعر فإن نماذج العطار الحية قد دارت حول موضوعات شغلته .
وهو يسجل وعيه بذلك ، وتمسكه به ، ونفوره من التزام التقليد القديم في
بكاء الدمن ، والانفلاق في الموضوعات الشعرية القديمة وعناصرها . ومن
أقوال « العطار » في هذا المعنى ما جاء في ثنايا تغنيه بجمال الطبيعة في دمشق :

بوادى دمشق الشام جز بي أخا البسط
وعرج على باب السلام ولا تخطى
ولا تبك ما يبكي امرؤ القيس حوملا
ولا منزلا أودى بمنعرج السقط
فإن على باب السلام من البها
ملابس حسن قد حفظن من العط
هنالك تلقى ما بروك منظرآ
ويسلى عن الأخدان والصحب والرهط
كساها الحيا أثواب خط فدرت
بنور شمع الشمس والزهر كالقرط

فهو يؤثر التحول عن بكاء الأطلال إلى التغنى بالطبيعة الحية من حوله
إيثاراً واعياً مقصوداً . ويلاحظ على هذه المقطوعة سهولة لغتها وتماسك أبياتها
في كل مترابط ، وهي صفة عامة تنسحب على معظم إنتاج العطار الشعرى ما لم
يعمد الرجل إلى التزام الإطار التقليدى للقصيدة العربية ، كما كان متداولاً
عند معاصريه . ويكثر ذلك في شعر المناسبات غالباً ، وفي رثاء الشيخ العطار

لأستاذة «الدسوقي» نجد نموذجاً لهذا الشعر الذى يقوم على المغالاة ، والاتسكاه على التوليدات المنطقية ، مما يجعله أقرب إلى النظم . وفى نماذج هذا النوع تنكس وحدة القصيدة فيصبح البيت وحدة قائمة بذاتها ، كقوله :

عسزاه بنى الدنيا بفقد أئمة لكأس صير الموت كل نجرجا
يميناً لقد جل المصاب بشيخنا الـ سدسوقي وعاد القلب بالهم مترعا
بقى من أوجه نشاط العطار الجانب السياسى ، والفكرة الشائعة بين من درسوا الرجل وأعماله ، أنه كان مسالماً بطبعه ، يلتزم أسلوب العلماء فى الآراء التى يشر بها . أو أنه كان حصبياً كيساً - كما يذهب المرحوم الأستاذ العقاد - فلم يقم نفسه فى مجال السياسة . بل إن الذى يراجع آراء معاصرى العطار من الشيوخ ، يحس أنهم كانوا ينظرون إليه على أنه رجل محمد على وصنيعته . والواقع أن هذه النظرة إلى نشاط العطار السياسى لها ما يبررها من ظاهر موقف الرجل ورأى معاصريه فيه ، ولكنها بعد نظرة من الخارج ، أو هى نظرة على السطح .

لقد رحل العطار من القاهرة إلى أسبوط فراراً من وجه الفرنسيين أول دخول رجال الحملة الفرنسية القاهرة ، وظل هناك حتى هدأت الأحوال واطمأنت النفوس ، فعاد مع المائدين ، وبدأت صلة العطار بالفرنسيين منذ ذلك التاريخ ، وتوثقت هذه الصلة حتى أصبح يفهم عنهم ويتحمس لحضارتهم وعلمهم ، ويشر بضرورة الانتفاع بكل ذلك ، ثم يسافر العطار إلى سوريا وتركيا ولا يعود إلا فى عهد محمد على ، والراجح أنه خرج مكرها بسبب العسف الفرنسى ، أو احتجاجاً على إساءة الفرنسيين معاملة المصريين ، ويقال إنه ذكر ذلك فى بعض رسائله الخاصة .

وفى عهد الحملة بشر نابليون فى منشوراته وأقواله بملاح ديمقراطية رائعة، وبلغ ذلك ذروته فى الديوان العام الذى هو أشبه ما يكون بمؤتمر عام يضم مندوبى القاهرة والأقاليم للبحث فى شكل الحكم والضرائب والقضاء وغير ذلك من الأمور الحيوية ، كما نجد هذه اللوحة الديمقراطية تنكرر فى الدواوين الخاصة ، إلا أن الفرنسيين لم يلبثوا أن فجعوا المصريين فى آمالهم التى علقوها بهذه الوعود البراقة ، ذلك أن الفرنسيين سلبوا هذه المنظمات فاعليتها ، وفرضوا الكثير من الضرائب والإتاوات والسلف الإجبارية ، بل أزهدوا من الأرواح ما لم يُجِدْ معه تدخل أعضاء الدواوين ولا العلماء ، مما ضاعف من حنق المصريين على الفرنسيين ، وهو مترك أثرًا حاسمًا على الحركة القومية الوليدة . وبدى أن العلماء المثقفين الفاهمين كانوا فى طليعة الناقين ، وكان العطار بين هؤلاء فى المقدمة . وحسبنا دليلًا على غضبة الشعب وعدم انخداعه بوعد نابليون أن الديوان العام انتهى بشورة القاهرة الأولى .

وفى عهد الحملة الفرنسية أيضًا ، ترجم الدستور الفرنسى وأعيد طبعه ثلاث مرات ، وكان العطار يتابع الكتب المترجمة ، فلا شك أنه قرأ هذا الدستور المترجم ووعاه . ولقد كان العطار بعد معنيًا بتقديم البلاد حريصًا عليه ، وهو صاحب فكرة إرسال الطهطاوى تلميذه الفذ فى البعثة العلمية إلى فرنسا فى عهد محمد على ، كما كان صاحب فكرة تدوين الطهطاوى لكل ما يرى وما يعم له فى أثناء رحلته مما ، كان ثمرته كتاب « تخلص الإبريز فى تلخيص باريز » . فليس من المغالاة فى شيء أن نستنتج أن وقوف الطهطاوى عند نظام

الحكم الفرنسي ، ونقله من الدستور الفرنسي ، وإطالته الوقوف عند ما أسماه « جوانب العدل » فيه ، إنما يترد إلى إيجاء أستاذة العطار . ومن هنا يمكن أن نجعل موقف الرجل السياسى فى عهد الحملة الفرنسية ، فى نشاط معاد استوجب نفيه ، ثم تنبهه إلى مزايا الديمقراطية الفرنسية ، وحرصه على أن تنتفع بلاده بها انتفاعاً رسم خطوطه العريضة لتلاميذه وعهد إليهم بموالاته .

* * *

وفى عهد محمد على نجد إشارات متفرقة يمكن بجمعها وتعمقها أن نستدل على موقف العطار السياسى . وأولى هذه الإشارات ، أن الرجل كان صديقاً حميماً للجبرتى المؤرخ ، وأنه أسهم معه فى تأليف كتابه « مظهر التقديس » . والمعروف عن الجبرتى أنه كان ينقم على محمد على افتتاحه على الكيان المصرى والشخصية المصرية ، وإن أعجب بنشاطه وحزمه . يقول فى ذلك : « .. فلو وفقه الله بشئ من العدالة على ما فيه من العزم والكياسة والشهامة والتدبير والمطاولة لكان أعجوبة زمانه وفريد أوانه » .

وليس ببعيد أن يكون هذا هو حقيقة موقف العطار نفسه من محمد على وحكمه ، لاسيما أن الرجل كان شديد الغيرة على المصلحة العامة ، شديد الحرص على تشخيص الواقع المحيط به وتغييره .

* * *

أما الإشارة الثانية إلى موقف العطار السياسى فى عهد محمد على ، فنجدها فى الوقائع فى الفترة التى ولى فيها العطار تحرير القسم العربى منها (١٨٢٨ - ١٨٣٠ م) . وخلاصة هذه الإشارة أن أحد محررى الوقائع واسمه

عزيز أفندي كان يحرص على أن يعرض الأخبار التي ترد إليه من محمد علي عرضاً موجهاً ، أي أنه كان يعلق عليها برأيه الشخصي ، ولم يرص ذلك محمداً علياً ، فلفت نظر عزيز أفندي مرة ومرة ، وفي الثالثة نهأه نهائياً عن الوقائع ، وبعد ذلك بقليل نجد رئيس التحرير نفسه يعتذر عن كتابته بعض أشياء لم يكن مطلعاً عليها فوقع بها الخطأ ، وأن سعادته (محمد علي) أمر بأنه لا يكتب شيئاً إلا بعد الاطلاع على حقيقته ليكون خالياً من السهو والخطأ ، ويشكر المحرر محمداً علياً لتجاوزه عن هذا الأمر ، بل واختياره المحرر عضواً في المجلس العالي من غير استحقاق .

وهذه الإشارات جميعاً ، لا تدع مجالاً للشك في أن العطار لم يكن راضياً تماماً عن كل ما يدور حوله ، ولكنه كان كيساً انعط بما فعل محمد علي بزعماء المصريين وعلمائهم المناوئين له ، فلم يلجأ (العطار) إلى أسلوب المجابهة المفتوحة .

واختلاصة أن الشيخ حسن العطار كان له موقف متكامل من مشكلات مجتمعه الثقافية والتعليمية والأدبية والسياسية .

وقد حاول أن يشخص هذا الواقع ويحدد جوانب الضعف فيه ، كما نادى بضرورة تغييره ورسم برنامج هذا التغيير ، ثم أسهم بدوره في هذا التغيير . وأخيراً أنه عهد بأمانة هذا التغيير ومستقبله إلى تلاميذه ، الذين يعتبر رفاة الطهطاوى نموذجهم الفذ الذي بلغت حركة العطار على يديه أوجهاً . وفي كل ما قاله الطهطاوى وما عمله تكاد روح العطار وشخصيته أن تلمس باليد . .

مُحَمَّدُ أَبُو الْفَتْحِ

١٢١٧ — ١٢٩٤ هـ

هو الشيخ محمد أبو الفتح ، مفتي الأسكندرية . وقد ولد في أوائل القرن الثالث عشر ، وطلب العلم بالأزهر على الشيخ الصاوي وغيره من شيوخ الوقت ، ثم انتقل لرشيد وتزوج بها .

وكان ملازماً للشيخ محمد البنا الكبير ، فلما انتقل الشيخ إلى الأسكندرية انتقل المترجم معه وبقي بها وانتخب أميناً لفتاها ، وكان مفتياً إذ ذاك الشيخ الدويري . ثم لما مات « الدويري » تولى « البنا » الإفتاء ، فنقل المترجم لمنصب آخر ، ولما مات البنا تولى هو إفتاء النفر وبقي به إلى أن مات .

وكان له شغف زائد بجمع الكتب واقتناء نفائسها ، حتى اجتمعت له خزانة نفيسة بيعت بعد موته بثمان بخس ، وكان رأى بناته وزوجته إبقاءها فلم يرض ولده ، فنهبت وتفرقت بعد ما عانى أبوه ما عانى في شرائها واستنساخها .

وكان له ولع أيضاً بجمع الساعات ، فجمع منها نواذر وطرفاً بيعت بعد موته أيضاً ، ولم يترك شيئاً من الحطام سوى دار بالأسكندرية كان يسكنها في أواخر أيامه .

وكانت وفاته يوم الاثنين سادس شهر صفر سنة ١٢٩٤ هـ ودفن يوم
الثلاثاء ، ورثاه الشيخ عبد الرحمن الأبيارى قاضى الأسكندرية بقصيدة مطلعها :
أهذى سيوف الدهر جردها الدهر أم السنة الشهباء جف لها الزهر
ومن مؤلفاته : كتاب « تبويب الأشباه والنظائر لابن نجيم » .
وشرع فى كتاب آخر فى الفقه لم يكمله .
وكانت له يد طولى فى علم الميقات .
وهو جد صاحبنا^(١) العالم الفاضل الشيخ حسن منصور لأمه .

(١) كان أحد اصحاب المغفور له العلامة أحمد نيمور باشا — رحمها الله وأحسن
منوبتهما .

مُحَمَّدُ الْأَشْثُونِي

١٢١٨ - ١٣٢١ هـ

هو الشيخ محمد الأشثوني ... ومعلوم أن أصله من أشثون جريس ، قرية من أعمال المنوفية ، وقد أخبر أنه من نسل أبي مدين التلساني . ولد سنة ١٢١٨ هـ وحضر إلى الأزهر فنلقى عن شيوخه : القويسني ، والبولاق ، والفضالي ، والأمير ، والباجوري ، والمرصني وغيرهم . وكان أكثر حضوره على البولاق والباجوري ، واشتهر بالذكاء وجودة التعليق ، وإتقان التحصيل ، إلى أن تأهل للتدريس ، فدرس الكتب المتداولة بالأزهر صغيرة وكبيرة . وقرأ المطول ، وجمع الجوامع ، وكتب التفسير ، والحديث ، والعقائد وغيرها مرات ، بمذوبة منطق ، وحسن إلقاء . ولم يؤلف كتباً ، وإنما كتب عنه بعض الطلبة تقييدات عن قراءته للعقائد النسفية ، وكذلك قيدوا عنه نحو ثلاثين كراسة حال قراءته لمختصر السعد ، وأخذ عنه كثيرون من كبار علماء الأزهر ، وعمر عمراً طويلاً ، حتى ألحق الأجداد بالأحفاد ، وصار جميع من بالأزهر إما تلاميذه أو ممن في طبقتهم .

وروى أن الشيخ محمد الإنبائي شيخ الأزهر تاقى عنه ، إلا أن الشيخ الإنبائي كان ينسكرك ذلك . ولم يعقب المترجم لأنه لم يتزوج قط ، وكان القائم بخدمته في داره أخت له وجارية سوداء ، وعبد اسمه محبوب تبناه وزوجه

من الجارية ، وفتح له حانوتاً بالتربية وصيره من التجار . ثم وقف على الثلاثة داره التي كان يسكنها بالباطنية بالقرب من الأزهر .

ولم ينقطع عن التدريس والإفادة إلا قبل موته ببضع سنوات ، لضعف أصابه من الكبر وأبطل حركته . وكانت وفاته ليلة الجمعة رابع ذى القعدة سنة ١٢٢١ هـ ، عن مائة سنة وثلاث سنوات ، وأطلقوا منادين في الطرق للإنباء بوفاته ، فساروا مثني رافعين أصواتهم بالنعي ، واجتمع في صبيحة الوفاة الألوف من صفوف الناس لتشيع جنازته ، قيل إنهم بلغوا نحو أربعين ألفاً ، وحضر أيضاً الوزير المنهسي المراكشي وزير الحرب بالمغرب ، وكان ماراً بمصر للحج .

وتقدم شيخ الأزهر السيد علي البيللاوي للصلاة عليه بالأزهر ، وتلوا قبيل الصلاة مرثية من نظم الشيخ إبراهيم راضي مطلعها :

لا قلب للإسلام غير حزين فالיום فيه انهد ركن الدين
ثم خرجوا بالجنازة إلى القرافة ، ودفنوه في مقبرة الشيخ الإنبائي . وكان رحمه الله أنيس المحضر ، كثير الدعاة والمزاح مع الطلبة ، شديد الورع ، متصفاً بالزهد والتقشف ، وقلة الاحتفال برفاهة العيش ، إذا سار في الطريق توكأ على عصاه بيد ووضع الأخرى على كتف من يساره ، ولا سيما بعد علو السن وضعف القوة . حضر مرة احتفالاً مما يقام لكسر السد أو المولد النبوي ، ورموا بالسهم النارية كهاتهم ، فتنجأوا منهم منها مداه ووقع على الحاضرين ، فأصاب المترجم في إحدى عينيه وذهب بها ، فرتبت له السلطات راتباً شهرياً علاوة على راتب الأزهر . رحمه الله تعالى .

ابراهيم ميرزوف

١٢٢١ - ١٢٨٣ هـ

تلقى إبراهيم بك مرزوق الشاعر العلم بمدرسة الألسن ، وتخرج على ناظرها رفاعه بك رافع الشهير، فقرأ بهذه المدرسة النحو والصرف وباقي علومها وبرع في الفرنسية . وكان لرفاعة عناية خاصة في تلقين تلاميذه العربية والعلوم الأدبية ، وتدريبهم على نظم الشعر ، فكان للمترجم حظ من هذه الصناعة ، فنظم الشعر الجيد من المقطعات والقصائد ، اعتنى بجمعها بعده محمد سعيد بك ابن جعفر مظهر باشا سنة ١٢٨٧ هـ في ديوان سماه « الدر البهي المنسوق » ، بديوان إبراهيم بك مرزوق « وطبع بمصر .

ولما أتم المترجم علومه بالمدرسة استخدم في ديوان كان يقال له « ديوان الهرجالات » وهو خاص ببيع الخيل والماشية التابعة للحكومة . ثم نقل منه ناظراً للقلم الإفرنكي بالضبطية ، وفصل منه مدة عبده باشا ضابط مصر . ثم عاد إليه بعد نحو ثلاث سنوات ، وكان مدة توليه لهذا القلم كثير المعاناة للإفرنجة ، إذا وقع أحدهم في سجن الضبطية أو كانت له دعوى بها ، فلما كان يسلم من أذاته . حتى ضج منه وكلاء الدول ، وأكثروا من الشكوى ، فلم يكن يثبت عليه شيء عند التحقيق ، والسبب في ذلك أنه كان يعتمد على إخوانه

ومرؤوسيه بالضبطية على إيصال الأذى إليهم سرّاً نكابة بهم ، لطفيانهم على
الرعية وتدرعهم بدروع الحماية .

وفي مدة وكالة إسماعيل الخديو نقل المترجم معاوناً بمجلس الأحكام ، ثم
لما تولى هذا الخديو على مصر أرسله ناظراً للقلم الإفرنكي بالخرطوم قاعدة بلاد
السودان . فبقى إلى أن توفي بها سنة ١٢٨٣ هـ .

وكان مربوع القامة ، أبيض اللون ، قد خطه الشيب . ومات بعد ما
تجاوز الستين . رحمه الله .

مُحَمَّدُ عِيَّادُ الطَّنْطَاوِي

١٢٢٧ هـ — ١٢٨٠ هـ

١٨١٠ م — ١٨٦٢ م

وقفت له على ترجمة بخط الأديب الأستاذ عبد المعطي السعد ، قال :
هو الشيخ محمد بن سعد ، الملقب بمياد الطنطاوي ، الشافعي ، أحد أفراد
الطبقة الأولى الآخذة عن شيخ الإسلام الشيخ إبراهيم الباجوري شيخ الجامع
الآزهر المتوفى سنة ١٢٧٦ هـ .

كان رحمه الله من أعيان علماء القرن الثالث عشر ، راسخ القدم في العلوم
العقلية والنقلية ، آخذاً بخط وافر من الأدب . وله كثير من الشعر الحسن
والنثر المستحسن ، وكان المشتغلون بالأدب من علماء الأزهر في عهده قليلين
يعدون على أصابع اليد ، كشيخ الإسلام الشيخ حسن العطار شيخ الجامع
الآزهر ، والشيخ خليل الرجي .

وقد ولد المترجم في طنطا سنة ١٨١٠ م وتعلم في الجامع الأحمدى بها ، ثم
أتم تعليمه في الأزهر . وله رحمه الله مؤلفات كثيرة ثم على غزارة مادة ودقة
نظر ، منها : في العقائد حاشية على الشرح المسمى « بالتحفة السنية في العقائد
السنية » للعلامة الكبير برهان الدين أبي المعالي إبراهيم السقا على منظومة
السيد محمد بليحه ، يقول في آخرها :

(وحيث طعمت من بليحة ، وشربت من منهل السقا ، فتفكك بها لأنس
نفسك عليك أن ترقى) .

ومنها حاشية على رسالة شيخه العلامة الشيخ إبراهيم الباجورى . يقول
فيها مادحاً ومترظاً ، كما وجدته مكتوباً بخطه تحت طرفها :

إن علم الكلام أفضل علم	فيه وصف الإله والرسول يسرد
فإلى هذه الرسالة بعم	فهى حازت لما عليك تأكد

ومنها « شرح منظومة الشيخ السلموفى » التزم السجع فى جميع جملة ، يقع
فى نحو كراسة .. و « حاشية على شرح الشيخ خالد الأزهرى » على متنه
المسمى « بالأزهرية » فى علم النحو ، ضمنها تحقيقات جمة . و « حاشية
على متن الزنجانى فى الصرف المشهور بمتن العزى » قال فى أولها مورياً بالمتن
المذكور :

الصرف زين أهله	وهو لهم كالكنز
قالوا لما تقرأوه	قلت لأجل (العز)

ومنها « منظومة فى البيان نظم فيها متن السمرقندية » وشرح على المنظومة
المذكورة ، فى كراستين لطيفتين .

ومنها حاشية جليلة على كتاب « الكافى فى علمى العروض والقوافى » .
وقدر له رحمه الله الذهاب إلى روسيا ، فذهب إليها ، حوالى سنة ١٨٤٠م
وعمل مدرساً للغة العربية بمعهد اللغات الشرقية فى بطرسبورج^(١) . وظل يعمل

(١) مدينة لينتجراد الآن .

هنالك نحو ربع قرن ، إلى أن انتقل إلى رحمة الله سنة ١٨٦٢ م ، بعد أن نخرج على يديه عدد كبير من المستشرقين .

وكانت بينه وبين رفاعه الطهطاوى مراسلات أدبية ، وكلاهما من خاصة تلاميذ الشيخ حسن العطار . وقال فى إحدى رسائله إليه :

« أنا مشغول بكيفية معيشة الأوربيين ، وانبساطهم ، وحسن إدارتهم . خصوصاً ريفهم وبيوتهم المحدقة بالبساتين والأنهار ، إلى غير ذلك مما شاهدته قبل بباريز ، إذ بطرسبورج لا تنقص عنها ، بل تفضلها فى أشياء كاتساع الطرق . أما من جهة البرد فلم يضرنى جداً ، وإنما ألزمنى ربط منديل فى العنق، ولبس فروة إذا خرجت ، أما فى البيت فلمداخن المثبتة معدة للإبقاء . ومن أهم مؤلفاته كتاب سماه « أحسن النخب ، فى معرفة لسان العرب » وقد ضمنه جملاً وألفاظاً ومكاتبات وقصصاً وأغاني عامية ، مع ترجمتها إلى الفرنسية . وله مخطوطات عدة موجودة فى مكتبة كلية بطرسبورج .

وقد اصطحب معه إلى روسيا زوجته وابنه ، وبقياً بعدهم فيها إلى أن توفيا ودفنا مثله بمدافن المسلمين فى بطرسبورج .

ولم تؤثر إقامته الطويلة فى روسيا فى شىء من دينه أو عقيدته ، كما يؤخذ من قوله فى قطعة شعرية أرسلها إلى أحد أصدقائه بمصر :

أنا بين قوم لا أدين بدينهم أبداً ، ولا يتدينون بدينى

وقد وقفت على ترجمة أخرى للشيخ محمد الطنطاوى ، فى كتاب تلقيته من المشرق الروسى أغناطيوس كراتشوفسكى عضو أكاديمية العلوم الروسية ، كتبه فى ليننغراد فى ٣٠ تشرين الثانى (أكتوبر) سنة ١٩٢٤ م وهذا نص الكتاب :

« جناب العالم العلامة الفاضل والأستاذ المدقق الكامل (١) .

قد تسلمت فى هذه الأيام الجزء التاسع من مجلة المجمع العلمى العربى فى دمشق ، ورأيت فيه مقالة عن الشيخ الطنطاوى ، جاد بها قلمكم السيال وعلمكم الواسع ، وسررت بها جد السرور لما نشرتم من ذكر هذا الرجل الفاضل الذى خدم الأدب العربى والروسى خدمة تذكروا وتشكر . قد طال ما أعلل نفسى بكتابة ترجمة الشيخ ، وقد تراكت لدى المواد ، ولكن لم تساعدنى الظروف حتى الآن بجمعها وترتيبها . أما المستقبل فأت . ولذلك رأيت أن أكتب إليكم ببعض الملاحظات والاستندراكات على مقالكم اللطيفة ، وأقول :

من أهم المصادر فى هذا الموضوع تاريخ الحياة للشيخ ، المكتوب بقلمه ، وإن لم يكتب منه إلا قطعة صغيرة ، وهى منشورة بأصلها العربى والترجمة الألمانية للعلامة Y. G. Kaschgarten فى مجلة اسمها :

Testochrisftder Dentochben Morginla' rdcsehen Yesselle choft
I. V. 482. 282.

(١) يقصد للنفور له العلامة المحقق أحمد تيمور باشا رحمه الله .

« والمصدر الثانى لتاريخه لا يقل أهمية عن الأول ، وهو مخطوطاته العديدة الموجودة الآن فى مكتب الكلية البتروغرافية . وهى لا تقل عن مائة وخمسين نسخة يوجد بينها كثير من تأليفات الشيخ كتبت أغلبها بخط يده . ومن مؤلفاته المذكورة فى مقالاتكم (ص ٩ - ٣٨٨) يوجد فى الكلية « حاشية على الأزهرية » كتبت سنة ١٢٥٣ هـ ، وهى بخط يده (عدد ٨٢٧) . و « نظم التعريف للزنجاني » كتب سنة ١٢٥٥ هـ حسب النسخة الأصلية المؤرخة سنة ١٢٩٥ هـ (عدد ٧٢٦) . وعدد التأليفات غير المذكورة فى مقالاتكم ليس بقليل ، ككتاب « منتهى الآراب ، فى الجبر والميراث والحساب » كتب سنة ١٢٩٥ بيده (عدد ٨٢٠) . وكتاب « الحكايات المصرية العامة » بيده (عدد ٧٤٥) . ومسودات لتاريخ العرب ، وترجمة الباب الأول من « كلستان السعدى » بيده (عدد ٨٣٨) وغيرها . وكثير من المخطوطات مع الحواشى والشروح للشيخ ، يذكر فيها وقت قراءته لها أو نسخه . وفى هذا من الفوائد كثير .

والمصدر الثالث لتاريخ حياة الشيخ مشنت ومبعثر بين أيدي الناس والمكاتب ، أعنى مكاتبته مع أصدقائه وتلاميذه . ولم يصل إلى يدي منه غير شيء قليل لا يطفى غليلا .

وكان من تلاميذه المشهورين : Y.A. Mallin الفنلندى أصلا الذى صالح فى جزيرة العرب وفى بلاد مصر وسورية سنين عديدة ، نحت اسم عبد المولى .

وقد طبعت بعض مكاتيب الشيخ إليه مترجمة إلى اللغة الأسوجية ، ويرجع غيرها في مكتبة الكلية في عاصمة فنلندا المسماة : « Helsingfors » وقد أحرزت على النسختين منها .

« وما ذكره الأستاذ Inart من تاريخ موته (ص ٣٩٠) من مقالكم ، فلا صحة له ، وهو مأخوذ على علاقته من كتاب تاريخ الآداب العربية للأستاذ « Brockelmann » الشهير ، وأقرب منه إلى الصواب ما رواه أمين فكري — مسنداً إلى الأستاذ غوتوالد — فإن الشيخ الطنطاوى توفي إلى رحمة ربه سنة ١٨٦١ م في ١٢٩ أكتوبر منها . كذلك لا صحة لما ذكرته بجملة رعميس (ص ٣٩١) وهو مأخوذ حرفياً من كتاب الأب لويس شيخو عن تاريخ الآداب العربية في القرن التاسع عشر (٣ : ٥٩) لأن الشيخ دعى للتدريس في الكلية سنة ١٨٤٠ م وليس سنة ١٨٥٨ م . وكان هو المعلم الأول . وكان نفروتسكى معاوناً له وليس العكس . أما سفره إلى روسية فكان بدعوة من نظارة الخارجية لتدريس العربية في مدرسة الألسن الشرقية التابعة للنظارة المذكورة . أما وقت سفره فليس ببعيد مما استنبطتموه في مقالكم (ص ٣٩١) لأنه دعى إلى الروسية سنة ١٨٤٠ م ، وقدم إليها على ما يظهر في هذه السنة . ومما يؤيد ذلك نسخة « شرح سقط الزند » الموجودة بين مخطوطاته (عدد ٨٣٧) . فإنه يذكر في ختامها أنه نسخها سنة ١٢٥٦ وهو في المحجر الصحي بالقسطنطينية .

وكذلك أصبتم في تعيين وظيفة الحاجة بكنتى (ص ٣٩٠) فإنه
كان ترجيحاً : (Agent consulaire) للقنصلية الروسية بالقاهرة .

هذا ما منح لى تحريره فى هذه الفرصة ، والمرجو من جنابكم أن
تنفضوا الأنظار عن هفواتى ، وتقبلوا عندى على قصيرى ، فإن المنر عند
كرام الناس مقبول) .

عَلَى اللَّيْثِي

١٢٣٦ هـ - ١٣١٣ هـ

كان الشيخ على الليثي - في ابتداء أمره - مقبلاً بمسجد الإمام الليثي ، وكان ينزل إلى الأزهر لطلب العلم ويعود للمبيت هناك . وكان كريماً على فقره . ثم ورد على مصر الشيخ السنوسي الكبير قاصداً الحج ، فاتصل به وأخذ عنه الطريق وحجاً معه ، ولما عاد إلى مصر لم يفارقه حتى صافر معه إلى « جنجوب » وأقام هناك مدة لم يفتأ فيها يطلب العلم ويستفيد . ثم فارقه وعاد إلى مصر ، واتصل بأمر عباس الأول فجعلته شيخاً على مجلس « دلائل الخيرات » عندها . ثم اتصل بالأمير السابق أحمد رفعت ابن إبراهيم باشا الكبير فاعتقد فيه وأطلع على خزانة كتب عنده فاطلع على ما فيها واستفاد منها . وكان الاعتقاد فيه بسبب سفره إلى جهة المغرب وأخذه علم الزايرة والأوقاف عن علماء المشهورين ، وتابعه في ذلك كثيرون ، لاعتقادهم فيه معرفته هذا العلم .

ولما تولى سعيد حكم مصر أمر عبده باشا ضابط القاهرة بجمع من يأكلون أموال الناس بالباطل بهذه الخزعات وما إليها ونفيهم إلى السودان . فسيق معهم الشيخ على الليثي لما علق به من الاتهام بذلك ، فبقى في السودان إلى أن عفى عنه ، وعاد إلى مصر .

ولما تولى الخديو إسماعيل تلاً نعيم الشيخ على الليثي وبدأ سمعه

فاتصل به وقربه هو والشيخ عليا أبا النصر وجعلهما نديمين له كندى جديمة وصار لا يصبر عنهما في مجالس أنسه ، فكانا إذا حضر تلك المجالس أزاخا الكلفة وتبسطا معه في القول والتندير ، فكانت لهما في ذلك من النوادر ما يملأ الأسفار .

وقد بلغ من شغفه بهما أن خصص لهما قاعة بديوانه يجلسان بها كأنهما من المستخدمين فيه ، وحدث أن أمر بكتابة ألواح على باب كل قاعة من الديوان ليعرف من بها كقلم التشريفات وقلم التحريرات ونحوهما ، وسألها العامل ، ماذا يكتبه على قاعتهما ، فقال له الشيخ الليثي : اكتب عليها (إنما نطعمكم لوجه الله) .

وبسبب تقرب المترجم من الخديو قصده الناس في الشفاعات عند الكبراء ، ونفع الله به خلقا كثيرين - جزاء الله عن مسعاه خير الجزاء .

ولما عزل الخديو إسماعيل - وتولى بعده ولده محمد توفيق ، شغل أيضا بالمترجم كوالده وقربه ، وأحل محله من القبول . حتى قامت الثورة العرابية وسافر الخديو إلى الإسكندرية ، فانضم الشيخ على الليثي للرابيين اضطرازا أو اختيارا . فلما انتهت الثورة العرابية وعاد الخديو للقاهرة لم يؤاخذه وصفح عنه . وقابله المترجم بقصيدة مطلعها :

كل حال لضده يتحول فالزم الصبر إذ عليه المول

تبراً فيها من الفتنة ، وأبان عذره في الانضمام إلى العراقيين ، وزاد بعد ذلك الخديو في تقريبه وإكرامه . ولا سيما بعد أن بنى قصره بحلوان . وصار يسافر إليه كل أسبوعين في سفينة بخارية ، فإنه كثيراً ما كان يسافر بالسفينة نفسها لزيارة الشيخ الليثي في ضيعته بشرق أطنيح حيث يتناول الطعام عنده ويقيم يوماً في ضيافته ، وهو شيء لا يفعله مع غيره .

ولهذا اعتنى المترجم بتلك الضيعة ففرس فيها البساتين والسكروم ، وبنى قصرًا صغيراً لنزول الخديو وحرمه وحاشيته . ولم يزل هذا شأنه معه حتى مات الخديو ، وتولى بعده ولده عباس فلم يكن للشيخ حظ معه كحظه مع أبيه وجده ، ولذلك جعل أكثر إقامته بتلك الضيعة يشغل باستغلالها ومطالعة كتبه ، فإذا حضر إلى القاهرة نزل بداره التي بجبهة باب اللوق فيقيم بها أياماً ثم يعود ، ولم يزل كذلك حتى اعتلت صحته وطال مرضه أشهراً حتى توفاه الله إلى رحمته يوم السبت ١٠ من شعبان سنة ١٣١٣ هـ عن سن عالية ، وقد شبع من الأيام وشبعت منه ، ونال من العز والجاه إلى مماته ما لم ينله غيره .

وكان رحمه الله آية في حسن المجالسة ، محبباً إلى القلوب ، أديباً شاعراً ، حاضر الجواب ، فكاهة الحديث ، إذا عرفه إنسان تعلق به ، وكره مفارقتة . — مع أنه كان دميم الصورة أطلس ، ليس في وجهه إلا شارب خفيف وشعرات على ذقنه .

ولما حضر لمصر السلطان برغش سلطان زنجبار نديه الخديو إسماعيل لمرافقته ومجالسته ، فلأزمه مدة مقامه بالقاهرة ، وأعجب السلطان به إعجاباً شديداً . ثم لما عاد لبلاده صار يتمهده بالرسائل والهدايا من العنبر ونحوه كل سنة فيهدى هو أخصاءه وأصحابه ، وكذلك ما كان ينتج ببساتينه من غرائب الفاكهة وأصناف الأهناب النادرة كان موقوفاً جميعه على الهدايا لا يبيع منه شيئاً .

وكان أدباء مصر وفضلاؤها — يقصدونه في تلك الضيعة ، فينزلهم على الرحب والسعة ، و يقيمون عنده الأيام والأشهر ، وهو مقبل عليهم بكرم خلقه ولطائفه ومحاضراته المستحسنة ، وقد يقيم الإنسان عنده شهراً أو أكثر وهو يؤنسه كل يوم بمحدث جديد لا يعبده .

واقضى خزانة كتب نفيسة اجتمعت له بالإهداء الشراء والاستنساخ ، وكان يبذل الأثمان العالية في الكتب النادرة ، فجلبت له من الآفاق وعرفه تجار الكتب والوراقون فخصوه بكل نفيس منها . ثم لما مات اقتسمها ورثته .

ومما وقفنا عليه للشيخ الألبى من الشعر قصيدة رثاء في محمد سلطان باشا - من أعيان الصعيد الذين تقلدوا مناصب في الدولة آخرها رياسة مجلس شورى القوانين في عهد الخديو محمد توفيق - وكان قد سافر إلى أوربة لمعالجته من حلة لم تغد فيها معالجة أطباء مصر ووافاه أجه في مدينة غراني

بالتحفة، وتقلت جثته إلى القطر المصرى فى أوائل شهر ذى القعدة سنة ١٣٠١هـ -
وكان مطلع قصيدته :

لا تأمن الدهر واحذره أبا الفطن فنصر الدهر مطبوع على الفتن
ياسابحا فى عباب اللهو من عمه دع الأمانى واحذر عادى الزمن
دهر تنكر فى حاله لا ثقة به لداريه فى سرّ وفى علن
بيننا نرى المرء فى أزر الصفا جزلاً إذ ألبسته المنيا حلة الكفن
يمسى وأزهار روض العيش يانعة حيناً ويصبح منعياً على ظمن
ذى شيمة الدهر لم يسلم مسالمة هيات برعى ذماماً غير مؤمن
نرجو وفاه ولو كان الوفى لما أودى بنفس أبى سلطان ذى المن
ومنها والله أعلم بما يقول :

يا لهف نفسى على واف له همم ببعضها لو تحلى الدهر لم يخف
ومنها :

إنى لأعجب من ساع لغائلة وكان يرجو شفاء الروح والبدن
لكن قضى الله فى إتمام نعمته بأن يموت شهيداً نازح الوطن
من مثله قام بالأمر العظيم وقد كان الزمان عبوس الوجه بالفطن
ومنها فى إقامة الخديو مآمه :

وبعد أن مات إنماماً لنائلة أحيا مآمه جرياً على السنن
هذى العناية قد ودّ الحسود له لو كان أودى ولاقى مثلها وفى

قل للحسود انتهض واحلل مكانته خلا لك الجو فاقرع هامة الفن
يا شامتا بنعى المكرمات فعش وخذ أمانا بما تهوى من الزمن
هذا وإلا فيح مثل مساعدة وانثر فرائد دمع غالى الثمن
ما كل من مات تبكيه الكرام ولا كل البكاء بكاء الواله الحزن
هذى مساجده هذى مدارسه هذى منازل أضياف على سنن
لا أ كذب الله إني بت من أسف لولا يقينى بوشك القرب لم أكن
وقد كفانى رثا شجو يؤرخه سلطان باشا شهيدا مات ياحزنى

١٥٠ — ٣٠٤ — ٣٢٠ — ٤٤١ — ٨٦

١٣٠١

حيث كانت وفاة سلطان باشا سنة ١٣٠١ هـ. ومما يؤثر عن الشيخ
الليثي أنه كان له إلمام تام بالثناء التاريخي - على جارى عادة عصره . وفضلا
عن أنه كان شاعراً أديباً فلم نقف له على ما دونه من الشعر . وأغلب
الظن أنه لم يطبع منه ما كان مخطوطاً ضمن مكتبته التى كانت تزخر بنفائس
المخطوطات مما جلب إليه إهداء وشراء ونسخا واستنساخاً ، وما بذله فى اقتنائها
من المال الكثير حتى اقتسمها من بقى بعده من ورثته ، ولعلها بقيت محبوسة
تحت أيديهم لم ينتفع بها أحد .

وبالجملة : فقل أن يوجد مثله ، أو يجتمع لإنسان ما اجتمع له من الورع
والتقوى ، خصوصاً فى أواخر أيامه ، رحمه الله رحمة واسعة .

مُحَمَّدُ الطَّنْطَاوِيُّ

١٢٤١ هـ — ١٣٠٦ هـ

وقفت له على ترجمة جمعها الأستاذ العالم السيد عيسى إسكندر المعلوف.
قال :

هو الشيخ محمد ابن الشيخ مصطفى ابن الشيخ يوسف ابن الشيخ على الطنطاوى الأزهرى ، ولد فى طنطا سنة ١٢٤١ هـ ، ومات أبوه وعمره أربع سنوات ، وماتت أمه وعمره ست سنين ، وحفظ القرآن وهو ابن سبع سنين على الشيخ محمد الشبراوىشى ، ثم دخل جامع السيد البدوى للطلب ، فقرأ على السيد محمد أبى النجا المشهور صاحب الحاشية ، والشيخ عبدالوهاب بركلت ، والشيخ على حمزة . وانتفع بهم مدة ، وأجازوه بالإجازة العامة .

ثم سافر مع أخيه الأكبر الى بلاد الروم وبلاد الترك ثم دخل حلب وقرأ على الشيخ أحمد الترمانيى وأجازوه ، ثم رحل الى الشام سنة ١٢٥٥ هـ وقرأ على الشيخ سعيد الحللى والشيخ عبدالرحمن الطبيى والشيخ عبدالرحمن الكزبرى ، وأخذ طريقته النقشبندية على الشيخ- محمد الخانى الخالدى ، فانتفع به حتى استخلفه عنه فيها (١) .

(١) ملخصة من كتاب «حلية البشر فى تاريخ القرن الثالث عشر» للمرحوم الشيخ

عبد الرزاق البيطار علامة دمشق - الجزء الثالث صفحة ٢٨٩ بخط المؤلف .

وعاد إلى مصر سنة ١٢٦٠ هـ ، ودخل الجامع الأزهر وانقطع للطلب بهمة وجد واجتهاد ، فقرأ على الشيخ إبراهيم الباجوري ، والشيخ إبراهيم السقا ، والشيخ عليش المغربي ، والشيخ مصطفى البنتاني (١) . والشيخ مصطفى المبلط ، والشيخ محمد الخضري ، وأكثر قراءته عليه في العلوم الغريبة كالليقات والفلك والجبر والمقابلة ، إلى أن صار إماماً في العلوم العقلية والنقلية ، مع شدة ذكائه وحفظه .

ثم رجع إلى الشام واستوطن دمشق في محلة الميدان سنة ١٢٦٥ هـ ، وجلس في حجرة جامع سيدنا صهيب الرومي ، فأقبل عليه الطلبة ، ولم يزل يقرئ الطالبين إلى سنة ١٢٧٨ هـ ، ثم دعاه الأمير عبد القادر الجزائري وعين له معاشاً (راتباً) واستأجر له داراً ، وأرسل جميع أولاده للأخذ عنه ، مع غيرهم من طلاب العلوم والفنون .

وكان الشيخ الطنطاوي يشتغل إلى ذلك بحساب جداول مما يتعلق بعلم الفلك والميقات والربع المقنطر والمجيب والأسطرلاب ، وقد قرأت (٢) عليه جملة رسائل فيها ، كما قرأت عليه دروسه في جامع صهيب . كما كنت في معيته سنة ١٢٩٠ هـ حينما وقع خلل في بسيطة منارة جامع بني أمية ، المسماة « بمثدنة

(١) هكذا في النسخة التي بخط المؤلف ولعله نسبة إلى (البلقاء) أو هي تحريف « القاني » .

(٢) الفارسي هو الشيخ عبد الرزاق البيطار مؤلف الكتاب الملخصة منه هذه الترجمة .

العروس » - فحسب الشيخ سائر أعمالها ، وجعل لها جداول بمدة الأعمال ورسم غيرها ، ثم أزالها ووضع بسيطته في مكانها

« وبالجملة » كان في كل علم عمدة ، ولكل مشكل عدة . رقيق القلب رحيمه ، سخي الكف كريمه . غير أن دهره قد عانده ، وعاكسه في آخر أمره وما ساعده . وهذا من دأبه مع أهل الفضائل ، وذوى المآثر والشماثل . إلا أنه كان يقابل ذلك بالتسليم والرضا ، ويعلم أن ذلك مما جرى به القدر والقضا (١) .

ومن نظمه قصيدة في مديح راشد باشا والى ولاية سورية لأمر اقتضى ذلك قال فيها :

أضحت دمشق بهجة ومسرة تزهو على كل البلاد بنضرة
إلى أن قال :

لا تعجبوا والى حماها راشدٌ بل مرشد والرشد أعلى خلةٍ
ومحمدى الخلق وهو محمدٌ ولذاته كلّ القلوب أحبت
أحيا بها العدل الذى ياطالما تاقت له كلّ النفوس وحنّت
والأمن قد عمّ الأنام جميعهم فتقلدوا منه بأوفى منه (٢)

(١) هذه الفقرة مثال من سجع المؤلف في تاريخه ، فانه التزمه في أكثر الكتاب على عادة القدماء وبعض المتأخرين مثل « ابن مصوم » في (السلافة) « والهي » في « النفحة » « والنالبي » في (البتية) ... الخ .

(٢) لم يورد له من الشعر غير هذه القصيدة ، وهى على أسلوب شعر الملأى والفقهاء كما نرى .

وله قصائد كثيرة ، وتقييدات شهيرة . لا يحسن استقصاؤها للخروج عن المطلوب من الاختصار . وكذلك لو أردت أن أذكر عفته ، وتفصيل تعيين الحكومة له مقادير من المعاش لم يقبلها ورعاً وزهداً ، لأدّى المقام بخروج عن المرام .

وفي سنة ١٣٠٥ هـ ، رسم بسيطة^(١) في ميدان دمشق في جامع الدقاق المعروف بكريم الدين — وجعل حسابها على الأفق المرتئي ، فجاءت أحسن من بسيطة جامع بنى أمية التي كان حسابها على الأفق الحقيقي ، ونتم عملها ورسمها وحفرها ، وصنع مكان في المنارة لوضعها فيه في أول « برج الجدى » . فعاجله المرض قبل ذلك ، وتوفى غرة جمادى الأولى سنة ١٣٠٦ هـ ، ودفن في تربة باب الصغير قرب مدفن سيدنا بلال رضى الله عنه من جهة الغرب .

وبعد موته بقليل وضعت البسيطة في مكانها ، والأوقات تستفاد منها بغاية الضبط . جزاه الله خيراً ، وأعظم له منةً وأجرآ .

(١) آلة يعرف بها الوقت كالساعة والمزولة .

مُحَمَّدُ الْعَبَّاسِي الْمَهْدِيّ

١٢٤٣ هـ — ١٣١٥ هـ

هو ابن الشيخ محمد أمين الحنفى ابن الشيخ محمد المهدي الكبير — الشافعي. كان جده المذكور من الأقباط فأسلم على يد الشيخ العلامة محمد الحنفى، وقرأ عليه وعلى أخيه الشيخ يوسف الحنفى وغيرهما حتى صار من كبار العلماء وترشح لرياسة الأزهر بعد الشيخ الشرقاوى ، ولكنها لم تتم له وتولاها السنوانى . وقد أطل « الجبرتي » فى ترجمته . . . ثم نشأ ولده الشيخ محمد أمين عالماً حنفياً ، وتولى الفتوى بمصر زمننا ، وتوفى سنة ١٢٤٧ هـ .

وولد الشيخ محمد العباسي المهدي بالأسكندرية سنة ١٢٤٣ هـ ، فقرأ بها بعض القرآن ، ثم حضر إلى القاهرة سنة ١٢٥٥ هـ ، فآتم حفظه ، واشتغل بالعلم سنة ١٢٥٦ هـ فقرأ على الشيخ إبراهيم السقاء — الشافعي ، والشيخ خليل الرشيدى — الحنفى ، والشيخ البلتانى ، وغيرهم ثم صدر أمر إبراهيم باشا ابن محمد على بتوليته إفتاء الديار المصرية فى منتصف شهر ذى القعدة سنة ١٢٦٤ هـ ، وهو فى نحو الحادية والعشرين من سنه ، ولم يتأهل بعد لمثل هذا المنصب الكبير .

ويقال إن السبب فى ذلك عارف بك الذى تولى القضاء بمصر ، وكانت له صلة بالشيخ محمد أمين المهدي ، فلما ذهب إبراهيم باشا إلى القسطنطينية

ليتسلم من السلطان مرسوم ولايته على مصر قابله عارف بك — وكان إذ ذاك شيخا للإسلام — وأوصاه خيراً بذرية الشيخ المهدي وأن يولى منهم من يصلح لمنصب أبيه .

فلما عاد إبراهيم لمصر ، بحث في طلب الشيخ محمد العباسي المهدي ، فصادفوه في درس الشيخ السقاء بحضور مقدمة مختصر السعد ، ولما قابله أثنى عليه لاشتغاله بالعلم ثم أنبأه بأنه ولاء منصب الفتوى بمصر ، وعزل عنه الشيخ أحمد التميمي الخليلي ، وخلع عليه خلمة هذا المنصب ، ثم عقد له مجلساً بالقلعة حضره حسن باشا المنسترلي ، والشيخ مصطفى العروسي وغيرهما ، فأقروا على إقامة أمين للفتوى يقوم بشئونها حتى يتأهل صاحبها لها ويباشرها بنفسه ، واختاروا له الشيخ خليل الرشيدى بدل الشيخ على البقل أمين فتوى التميمي . ونزل المترجم من القلعة بموكب كبير من العلماء والأمرء ، ووفد الناس على داره للتهنئة ، ومدحه الشعراء ، فن ذلك قول الشيخ محمد شهاب :

عز ياعزة الحمى أن تقاسى بمهاة الصريم فيما تقاسى

ومنها قوله :

تب مفتى الهوى وتبت يده	ضل شرعى نهجه والسياسى
فدعيه ياعز عز اصطبارى	إن فتواه فتنة للناس
ولئن قلت أى فتوى البرايا	حكمت بالنصوص دون التباس
وارتضاها الزمان قل لى وأرخ	قلت : فتوى مهديه العباسى

وهي قصيدة طويلة ألحق بها هذه الأبيات الثلاثة مشيراً فيها إلى « النيمى »
وإلى « الرشيدى » أمين الفتوى الجديد :

قلت لما أن تم بدر النيمى واعتراه نقص الخسوف الشديد
رجع الدرّ بالفتاوى إلى ما كان فيه من المكان المشيد
فلنعم الرشيد يا ابن أمين ولنعم الأمين يا ابن الرشيدى

وروى الفاضل محمد أفندى النيمى — فى الترجمة التى جمعها لأبيه الشيخ
أحمد النيمى — أن سبب عزله عن الإفتاء أحقاد قديمة كانت فى صدر إبراهيم
باشا منه ، بسبب معارضته له فى أمور تخالف الشرع كان يريدّها ويعارضه الشيخ
فيها ، فلا يجد بداً من الإذعان بسبب إقبال أبيه (محمد على) على الشيخ .
فلما آلت ولاية مصر إلى إبراهيم كان أكبر همه عزله عن الإفتاء .

ثم أكب المترجم على الاشتغال بالعلم ، خصوصاً الفقه ، حتى نال منه
حظاً وافراً ، وجلس للتدريس بالأزهر لإقراء « الدر المختار » فقرأ منه إلى
كتاب الطلاق وأكمل قراءته فى داره . وقرأ « الأشباه والنظائر » فى داره
أيضاً . وباشر أمور الفتوى بعفة وأمانة وتدقيق وتحقيق ، واشتهر بين الناس
بلحزم والعزم وعدم مبالاة الحكام ، وحسبك وقوفه فى وجه عباس الأول
وتعريضه نفسه للتهلكة صيانة لما استودع من أمانة العلم .

وسبب ذلك أن هذا الوالى أراد أن يمتلك جميع ما بيد ذرية جده

محمد على ، مدعياً أنه ورد مصر لا يمتلك شيئاً ، فكل ما خلفه لفريته إنما هو من مال الأمة يجب رده إليها ، ووضعه بيد أمينها المتولى شئونها ، واستفتى المترجم فلم يوافق وأصر على الامتناع ، ولم يحفل بوعيده ونهديه ، حتى طلبه فجأة إلى بنها فسافر إليها وهو موقن بالهلاك ، وكان معه عند طلبه الشيخ أبو العلا الخلفاوى فسافر معه لمؤانسته ومواساته ، فلما وصلا إلى قصر بنها روجع المترجم فى الفتوى ، فأصر على قوله الأول ، فأمر بهما فأنزلا إلى سفينة بخارية سافرت بهما ليلا فى النيل لنفى المترجم إلى أبى قير ، واعتراه لشدة وجله زحير ^(١) كاديودى به ، وهو مع ذلك مصر على قوله ، والشيخ أبو العلا يهون عليه الأمر ويؤانسه بالكلام ، إلى أن صدر الأمر بإرجاع السفينة وأنزلا منها وأمرأ بالسفر إلى القاهرة . وسلم الله . فكانت هذه الحادثة سبباً لعلو قدر المترجم فى النفوس ، وإعظام الولاة فن دونهم لشأنه ، وتسبب منها أيضاً لإقباله على الشيخ أبى العلا المذكور وسعيه له فى المناصب التى تولاها وعظم بها أمره بعد ذلك .

وفى سنة ١٢٨٧ هـ أراد الخديو إسماعيل عزل الشيخ مصطفى العروسى شيخ الأزهر ، ولكنه خشى الفتنة — لأن العزل لم يقع من قبل لأحد من مشايخ الأزهر ؛ فأخذ فى جس نبض العلماء وسبر غورهم فى ذلك ، فهون عليه الشيخ حسن العدوى الأمر ، وأوضح له أنه وكيل الخليفة ،

(١) استطلاق البطن بشدة .

والوكيل له ما للأصيل . فسر الخديو ، وبادر إلى عزل الشيخ العروسي في أواخر السنة المذكورة . وكان العدوى يطمع فيها ، وما قال ما قال إلا توطئة لنفسه ، فأخلف الله ظنه ، وصدر أمر الخديو في منتصف شوال بتوليته الشيخ محمد العباسي المهدي ، والجمع له بين منصب الإفتاء ومنصب شيخ الأزهر . ودعا الخديو لمقابلته وخلع عليه وأنزله من عنده بالوكب المعتاد . فباشروا شئون منصبه بحزم وعزم وتؤدة وتعقل . وكان أول ما صدر منه سعيه لإعادة ما كان لأهل الأزهر من المرتبات الشهرية والسنوية ، ثم استصدر أمراً من الخديو بوضع قانون للتدريس فأجابه إلى ذلك ، ووضع قانون الامتحان ، وكانوا قبل ذلك لا يمتحنون ، بل كان من تأهل للتدريس تصدر له — في أول درس له يحضره — شيوخه وغيرهم من كبار العلماء ، ويناقشونه ، فإن وجدوه أهلاً أقروه وإلا أقاموه .

ولم يزل المترجم سائراً في طريقه المحمود ملحوظاً بعين التبجيل من الحكام ، وبين الخاص والعام ، حتى ثارت الثورة العراقية المشهورة ، ورأى فيه العراقيون أنه ليس بالرجل الذي يوافقهم ويساعدهم في مطالبهم ، فكان من جملة ما طلبه عرابي باشا من الخديو لما زحف الجيش على قصر عابدين ، عزل المترجم من الأزهر ، فعزل عنه في المحرم سنة ١٢٩٩ هـ وتولى بدله الشيخ محمد الإنبائي ، وانفرد هو بالإفتاء . ثم اشتدت الثورة وجاهر العراقيون بطلب عزل الخديو ، وكتبوا قراراً بذلك وقع عليه العلماء والوجهاء ، وامتنع المترجم من التوقيع وقال لحامل القرار : « أنا لا أوقع بيدي ، فإذا كان في الأمر

غضب فان خاتمي معي ، خذوه ووقفوا انتم بأيديكم كما تشاءون » فانحرف عنه
الرابيون وبنوا عليه العيون ، حتى احتجب في داره التي هلي الخليج بالقرب
من مدرسة الفخرى المشهورة بجماع البنات . ونحامي الناس زيارته ، وصار
لا يخرج منها إلا لصلاة الجمعة في أقرب مسجد إليه .

ولما انتهت الثورة العراقية وعاد الخديو للقاهرة في ١٢ ذى القعدة من تلك
السنة ، ذهب الشيخ مع العلماء للسلام عليه وتهنئته ، فخصه الخديو من دونهم
بمزيد من الترحيب والرعاية ، وكان بينهم الشيخ الإنبائي شيخ الأزهر ، فلحظ
ذلك ، وخشى أن يعزله الخديو ليعيد العباسي ، فاستقال بعد أيام ، وأصدر
الخديو أمره يوم الأحد ١٨ ذى القعدة بإعادة المترجم إلى الأزهر ، علاوة على
منصب الإفتاء بيده ، وفيما يلي نص ذلك الأمر ، الموجه من الخديو إلى
رئيس النظر :

« إنه بناء على استعفاء حضرة الأستاذ الشيخ محمد الإنبائي من وظيفة مشيخة
الجامع الأزهر ، ووثوقنا بفضائل وعالية حضرة الأستاذ الشيخ محمد العباسي
المهدي ، قد اقتضت إرادتنا توجيه هذه الوظيفة لمهده كما كانت قبلا ، علاوة
على وظيفة إفتاء السادة الحنفية المنحلي بها من السابق ، وصدر أمرنا للدوي
إليه بذلك في تاريخه . ولزم إصدار هذا لدولتكم إشهاراً بما ذكر » في ٢ —
أكتوبر سنة ١٨٨٢ م الموافق ١٨ ذى القعدة سنة ١٢٩٩ هـ .

وكان بعض علماء الأزهر سموا لتنصيب الشيخ عبد الهادي نجبا الابياري ،

وكتبوا كتابة بذلك ، وأخذوا يوقعون عليها ويطوفون بها على العلماء ، ففاجأهم الأمر بإعادة المترجم ، وذهب سعيهم وتعبههم أدراج الرياح .

ثم استمر المترجم جامعاً للنصبين قائماً بشئونهما أتم قيام ، حتى كانت سنة ١٣٠٤ هـ وفيها بلغ الخديو أن جماعة من الأعيان والتجار مثل محمد باشا السيوفى وأخيه أحمد باشا يجتمعون للسمر بدار المترجم فى أغلب الليالى ، فيتكلمون فى الأمور السياسية ، ويظهرون أسفهم من وجود الإنجليز بمصر وموافقة الحكومة لهم فيما يحاولون ، وغير ذلك من هذه الشئون . فحنق الخديو وأرسل من يحضرون إليه محمد باشا السيوفى فلم يجذوه بل وجدوا أخاه أحمد باشا ، ومضى هذا معهم إلى القصر ، فوبخه الخديو توبيخاً شديداً ، وقال له : « بخيل لى أنكم تريدون إعادة الثورة العرابية » فتبرأ من ذلك ، وحلف أن اجتماعهم لم يكن إلا بقصد السمر والافتناس .

ثم قابل الخديو المترجم فى إحدى المقابلات الاعتيادية فلم يهش ، له كمادته ، بل قال له وقت الانصراف : « يا حضرة الأستاذ ، الأجدر بالإنسان أن يشتغل بأمور نفسه ولا يتدخل فيما لا يعنيه ويجمع الجمعيات بداره » . فما كان جواب المترجم إلا أن قال له : « لئننى ضعفت عن حمل أثقال الأزهر ، وأرجو أن تغفونى منه » . ولم يكن الخديو يتوقع منه هذا الرد ، فغضب وقال مستغهما : « ومن الإفتاء أيضاً ؟ »

فقال له : « نعم ومن الإفتاء أيضاً » ... ثم انصرف .

ولم يكن المترجم ممن يرغب عنهم أن مثل هذا السبب لا يدعو إلى الاستقالة ،

خصوصاً أن الخديو صرفه بالحسنى مع من اتهم معه ، ولكن كان هناك سبب أقوى أغضب رئيس النظار نوبار باشا الأرمنى ، وذلك لحادثة رفعت عنها دعوى أمام المحاكم الأهلية ، واقتضى الأمر طاب كشف وجه إحدى المخدرات للتحقق منها ، فامتنعت عن الإسفار محتجة بعد جوازه فى الشريعة ، واستفتى المترجم فأقضى بعدم الجواز ، فشكاه رئيس النظار إلى الخديو ، ووصفه له بأنه أصبح عقبة أمام القضاة معارضاً لأحكام القضاء ، ثم طلب عزله فيما يقال — أو يقيه الخديو من الوزارة .

فلما قال الخديو للمترجم ما قال ، تيقن أن المراد عزله فاستقال ، وأمر الخديو يوم الثلاثاء ٣ ربيع الثانى من السنة المذكورة بإعادة الشيخ محمد الإنبائى للأزهر . وإقامة الشيخ محمد البناء للإفتاء . وبقى المترجم بداره التى على الخليج ، واشتغل بإصلاح قسم منها تشعث ، فأعاد إلى رونقه الأول ، وصبغ حيطانه بالأصباغ ، وهو القسم المطلق على الخليج ، وصار يمشى وقته بالنظر فى شئون الخواصة ، والاشتغال بالعلم ، إلى أن أعيد إلى الإفتاء .

وأصيب فى أواخر أيامه بفالج وهو يتوضأ لصلاة الجمعة أبطل حركته ، ثم تعافى قليلاً وصار يخرج فى عجلته (١) للتنزه ، وعليه عبادة من الصوف . وأشير عليه بالإقامة بملوان لجفافها فانتقل إليها ، وأقام بها برهة لم يستفد فيها شيئاً ، فعاد لداره بالقاهرة . ووافته منيته فى الساعة الخامسة من ليلة الأربعاء ١٣ رجب سنة ١٣١٥ هـ عن اثنتين وسبعين سنة ، بعد أن لازمه المرض نحو

أربع سنوات ، فأذن له على المآذن، وحزن الناس لموته حزناً شديداً ، وتكاثرت
الجموع على داره لتشيع جنازته ، فقليل إن عدد المشيعين بلغ نحو أربعين ألفاً ،
والمصلين عليه خمسة آلاف .

ودفن بقرافة المجاورين في زاوية الأستاذ الحفنى جنب أبيه وجده ، ورثاه
كثير من الشعراء جمعت صرائيهم في رسالة ألفها الشيخ عثمان الموصلى نزيل
القاهرة ، وسماها « المرآنى الموصلية في العلماء المعربة » لأنه أضاف إليها
مارثى به الشيخ عبد الرحمن الرافعى مفتى الأسكندرية ، والشيخ سليم
القلعاوى شيخ مسجد القامة ، والشيخ محمد المغربى ، وكلهم توفوا في هذه
السنة أيضاً .

وكان المترجم رحمه الله ربة ، أقرب إلى الطول ، مليح الوجه ، منور
الشبهة ، معتدل القامة ، ذاهبية ووقار . مات عن ثروة طائلة ، وولدين
هما : الشيخ عبد الخالق المهدي ، والشيخ أمين ، ماتا بعده واحداً تلو آخر .
ولم يؤلف رحمه الله سوى مجموع فتاواه الذى سماه (الفتاوى المهدية) فى الوقائع
المعربة) طبع بمصر سنة ١٣٠١ هـ فى ثمانية أجزاء كبار . وعاش فى عزه
وتبجيل مدة حياته ، وتولى الإفتاء أربعين سنة من سنة ١٢٦٤ هـ إلى سنة
١٣٠٤ هـ لم يعزل فيها ، فلم تحفظ عليه بادرة خطأ أو مخالفة للشرع ، وسبب
ذلك أنه تولاه وهو صغير ، والعيون شاخصة إليه ، فكان لا يفتى فتوى
إلا بعد المراجعة والتدقيق . والتعب الكثير ، فحصلت له بذلك مأسكة فيه ،
حتى صار معدوم النظر لايجاره بحار فى هذا المضمار ، وأضيف إلى ما كان عليه من

التقوى والتشدد في أمر الدين ، حتى كانت مواقفه أمام الولاة لازيده إلا رفعة في هيونهم ، لعلهم أنه لا يريد إلا نصرة الحق ، فأحبوه وأغدقوا عليه بالإنعام . ومن مواقفه غير ما ذكرناه أن الخديو إسماعيل أراد مرة أن يستولى على الأوقاف الأهلية ، ويموض عنها أهلها ما يقوم بمعاشهم ، فاستفتاه في ذلك ، فتوقف ، وأفتاه بعضهم بالجواز ، فتكدر منه ، وجمع بينه وبين مخالفه ، فناظرهم وقار عليهم بعد ما ألفوا رسائل في الحادثة ، وأكثروا من الجلبة .

ولم يقتصر الولاة على مشاورته في الأمور الدينية المختصة بمنصبه ، بل كانوا يستشيرونه في غيرها من معضلات الأمور ، لما عرفوه فيه من سعة المدارك وجودة الرأي ، حتى إن إسماعيل لما عزل عن مصر قال لولده توفيق فيما أوصاه به : احتفظ يا بني بالشيخ المهدي ، فإنه رجل لا نظير له .

وبالجملة فمحاسن المترجم كثيرة ، ولم يكن فيه ما يشينه سوى ما كان يرميه به بعض شائثيه من الإساءة والتقتير ، ويضعون عليه النواحر الخارجة من حد العقول ، والمعروف عنه — للقاصي والداني — أن داره كانت مفتوحة للصادر والوارد ، لا تخلو مائدته يوماً عنهم . وحسبنا أنه كان يخرج زكاة أمواله كل سنة ويفرقها على المستحقين ، رحمه الله رحمة واسعة ، وأكثر في الأمة من أمثاله . وكان حائزاً لكسوة التشريف من الدرجة الأولى ، ومنح الوسام العثماني الأول في ٢١ صفر سنة ١٣١٠ هـ . هو وشيخ الأزهر الشيخ محمد الإنبائي وقاضي القضاة جمال الدين أفندي . وسبب ذلك أن السيد توفيق البكري تقيب الأشراف سافر في هذه السنة إلى دار السلطنة ، وتوصل

بمساعدة الشيخ أبي الهدى الصهبدى إلى مقابلة السلطان عبد الحميد ، فأنعم عليه بهذا الوسام و برتبة قضاء عسكر الأناضول . فلما بلغ ذلك مسامع الخديو أحبّ ألا يكون تقيب الأشراف ممنازاً عن كبار الشيوخ ، وأرسل إلى السلطان ملتمساً الإنعام على المفتى وشيخ الأزهر برتبة قضاء عسكر الأناضول ، وعلى القاضى برتبة قضاء عسكر الرومالى ، لأنه كان حائزاً لرتبة الأناضول ، لكن طلبه لم يصادف قبولا .

وأحيل إلى المترجم قديماً أمر انتقاء القضاة الشرعيين والمفتين الذين يقيمون فى ولايات القطر ومراكزه ، فكان يختار ذوى الكفايات ، ويتحرى فيهم النجابة والذكاء والديانة ، ويحمى عنهم لدى الحكام ، ويشد أزرهم . فنال بذلك مقاماً لدى أهل العلم المرشحين لهذه المناصب ، ووجهوا وجوههم شطر داره ، وهو مع ذلك لا يميل مع الهوى فى تنصيبهم ، ولو كان ممن يمد اليد لجمع من هذا الوجه شيئاً كثيراً . ثم رأت الحكومة أن يكون أمر تنصيبهم منوطاً ببلجنة تؤلف بنظارة الحقانية برياسة وكيلها إذ ذاك بطرس خالى باشا ، وهرضوا على المترجم أن يكون من أعضاء تلك اللجنة فأبى .

وكان له فى المحاماة عن أهل الأزهر ومساعدتهم القديح المعلن . ونرى عنه مواقف فى ذلك ، منها أن الشيخ مصطفى الفروسى مدة توليه على الأزهر استصدر من الخديو إسماعيل أمراً بنفى الشيخ حسن العدوى إلى إسنا ، وكاد ينفذ فيه ، لولا أنه استغاث بالمترجم ، فقام بنصره ، وذهب للخديو مستشفعاً ورجّ وألح حتى عفى عن الشيخ .

أحمد أبو الفرج الدمنهوري

١٢٤٣ - ١٣١٠ هـ

هو الشيخ أحمد أبو الفرج الدمنهوري الشاعر الأديب ، ظريف الجملة والتفصيل، حلواندارة والفكاهة ، انجذبت إليه النفوس وألفنه القلوب على دمامته وغرابة شكله . ولد بدمنهور ونشأ بها في ضنك ورقة حال ، ولم يكن مشغلا بالأدب في أول أمره ، ثم لازم الشيخ محمد الوكيل القباني أحد أدباء دمنهور المشهورين وعليه تخرج في النظم ، وصحب أيضا الشيخ حميدة الدفراوى ، وهو أديب لكنه لا يبلغ درجة الوكيل ، ولم يحضر المترجم العلم على شيخ ، بل كان يلزم مجلس الوكيل ولا يفارقه ليلا ولا نهارا ، فيكتب عنه كل ما يسمعه من شعر ونثر ونادرة ثم يستظهره . أخبرني ثقة : أنه اجتمع به بدمنهور حوالى سنة ١٢٦٥ هـ فرآه شابا نيف على العشرين، مخفوض الجانب ، كثير التواضع ، لا يستنكف من خدمة الوكيل المذكور وحمل المصباح أمامه إذا صار ليلا . ثم نظر المترجم في كتب الأدب ودواوين الفحول ، وبدأ ينظم الشعر ، فكان يعبث بالبيت والبيتين ، ثم نظم بمد ذلك القصائد والمقطعات ، إلا أنه كان قليل الإجادة ، كثير الخطأ والاحسن ، ينكاف التجنيس والتورية ، وأحسن شعره ما نظم في المجون وضمنه ألفاظ الغيارب والشطار . وكان حضوره إلى القاهرة محبة الوكيل فأوصله إلى السيد عبد الخالق بن وفا شيخ السادات الوفائية - فأعجب بظرفه ومجونه ، وكان ينزل عنده كلما حضر إلى القاهرة ،

وهي إذ ذاك غاصة بالأدباء والأعيان ، وفي الناس بقية ، فكانوا يهشون به ويتهادونه إذا حضر ، ويراسلونه إذا غاب ، فحسنت حاله قليلا ، بما كان يناله من هباتهم . ثم اتصل بشاهين باشا كنيج في طنطا لما كان مفتشا على الأقاليم سنة ١٢٩٣ هـ فانتظم في حلبة ندمائه واختص به وواساه وجعله طرفه مجلسه ، وجمع له من أغنياء البلاد مبلغاً وافراً اشترى به عقارا ، ورسم داره بدمهور ، واجتمع عند شاهين باشا بعبء الله أفندي نديم الشهير وغيره من خاصة أهل الفضل والأدب ، ثم قل شاهين باشا إلى منصب آخر بالقاهرة - فصار المترجم يتردد عليه ويقيم عنده الأيام والأشهر يجتمع في أثنائها بغيره من الكبراء وذوى الوجاهة فيهدى إليهم مدائحهم وينحفهم بطرائفه .

وكان على قلة إجادته في شعره مفتونا به مبالغاً في تقيظه وقت إنشاده ، يمزج ذلك بإشارات وحركات تستظرف منه . ولا يكاد يقر لأحد بالتقدم عليه في النظم . ولعمري لا أرى عبارة تنى بوصفه ووصف حركاته عند الإنشاد وقيامه وقعوده والتفات واستدعائه الحاضرين إلى استماعه ، فإنه كان إذا أراد إنشاد قصيدة من نظمه بدأ أولاً بتقريضها ، ونبه الحاضرين إلى مواضع الإجابة منها ، فإذا ألقوا إليه بسمعهم أشد الماطع وسكت هنيئة كلاً أخذ من جودته ، ثم التفت بمنة ويسرة مستظلماً خبيثة رأيهم فيه ، واستحلفهم بالله وبأنبيائه هل طرق آذانهم مثله في عمرهم ، وهل نبيأ لشاعر قبله ما نبيأ له من رشاقة المبنى وغرابة المعنى وتناسب الشطرين ، ثم يعضى في البيتين والثلاثة ويعود إلى الصمت والتفكير ويقول : سبحان المسامح ! كم ترك الأول للآخر ! وأمثال

هذه الجمل التي اشتهرت عنه وصارت من لوازمه ، ثم يمضى فى الإنشاد ، فإذا مر بتجنيس أو تورية وثب من موضعه وتمايل طرباً ، ثم نظر للحاضرين وقال لهم : اسمعوا من الفتى العربى المعبود ، تف على المتنبي وسحقه . أين هذه السلاسة والسهولة ؟ وهكذا حتى يتم القصيدة ، فإن رأى من السامعين استحساناً فتمادى فى غلوائه وأعجب وأطرب ، وربما عارضه بعض من يحضره استجلاباً لطرائفه واستثناساً بمحاورته ، فتصدر عنه النوادر ومحاسن الأجوبة المحاضرة .

بلغنى أنه حضر مرة مجلساً جمع لفيقاً من أهل الأدب ، فأنشدهم قصيدة من نظمته ، وبالغ فى استحسانها كعادته ، وأخذ يستطلع طلع آرائهم فيها ، فالتبذ له صديقنا العالم الفاضل والشاعر المجيد الشيخ عبد الرحمن قراة مداعباً ، وقال له : أخطأت فى بيت منها ، فأدخلت حرفاً على حرف ، وهو مالا يجوز النحاة ! فإما أن تسقطه أو تأتينا بشاهد على صحة قولك .. ووافقه الحاضرون ومالوا معه على المترجم ، فنكس رأسه هزيمة ثم نظر إليهم كالمتعجب وقال : يا ليت قومي يعلمون ! وكان كثير الاجتماع بشيخ أدباء العصر الشيخ أحمد أبى البقاء الزرقانى ، فلا يخليه مرة من شعر له ينشده لإياه ، ويمرض للشيخ ما يشغله عن الاستماع فيستلفته ويكثر من الإلحاح عليه بترك ما هو فيه والإصاغة إليه ، ويضايقه بذلك مضايقة شديدة ، ولكن لا يكاد الشيخ يعرض عنه حتى تصدر منه بادرة ينقلب لها المجلس ضحكاً ، فكان يقول فيه : إن أبا الفرج عندى مشكلة من المشاكل ، لا أدرى أهو ثقیل أم ظریف !؟

وكان أول اجتماعي به في مجلس أحد الأعيان وأنا شاب يافع متعلق بالأدب وأهله ، ولم أكن لقيته من قبل ، بل كنت أسمع به وأشتاق إلى رؤيته ، فرأيت عجباً . رأيت شيخاً قصيراً دميم الوجه قد ذهب إحدى عينيه ، عليه جبة واسعة الأكمام ، وهو جالس في زاوية من المكان على شخص حسن الخط دالية من الطويل منصوبة الروى ، جعلها تهنئة للخديو توفيق بقدمه من الإسكندرية ، فكان منه من الوقوف عند كل بيت والإعجاب به على ما تقدم ذكره ما ينهى للالتفات إليه . ثم مربيت قافية لفظه (ومعضداً) فوثب من مكانه ونبه الحاضرين إلى أنها : تورية باسم الخليفة «المعتضد بالله» فلم يوافقوه فأعرض عنهم وأقبل على الكاتب يشرح له حسن هذه التورية ، وأنها لم تنهياً له إلا بعد إعمال الفكر والروية ، حتى أضجره ورمى الدرج من يده ، فغلبنى الضحك واستظرفته وقصدت محادثته ، فقلت : لعل سيدي الأستاذ عارض بهذه القصيدة قصيدة أبي الطيب التي يقول في مطلعها :

لكل امرئ من دهره ما تعودا وعادة سيف الدولة الطعن في العدا

فسكت ، ثم نظر إلى شراً ولم يزدني على قوله : تف على المنبي . فاستغرقت في الضحك ، وسألت عنه بعض الحاضرين . فخبرنى به ، فكذت أظير سروراً بلقائه ، وأقبلت عليه أمدح القصيدة وأذكر مواضع الإجادة فيها وأستعيدها منه ، فأبرقت أسرته وأقبل على أيما إقبال وأسمعني بعض مقطعات من شعره ، فقلت له : أما كان الأولى بهذه اللاكي أن تنظم في سخط ؟ فقال : نعم ياسيدي

إلى مهمتهم بذلك ، وسيكون ديواناً مرقصاً . وامتد بنا المجلس ، فرأيت منه ما لو أردت إثباته برمته لطلال بنا المقال ! ثم طارقه وأنا أشوق الناس إليه ، وكأني به أحد أبناء المنجم الذين ذكرهم الثعالبي في « اليتيمة » ، وأورد فصولاً للصاحب بن عباد في وصفهم .

ومن غريب أمر المترجم أنه كان يستملح منه ما يستثقل من غيره ، فقد روي عن « بشار » : أنه كان يصفر ويصفق ويتفل عند إنشاده ، وعن « البحرى » أنه كان يتقدم ويتأخر ويتلفت إعجاباً بشعره ، وقد عييا بذلك وعداً من سقطتهما التي نعاها عليهما الناعون ، بخلاف المترجم .

ومن غرائبه أنه كان معجباً بكنيته ، وكثيراً ما كان يتدرج بها إلى الاتساع لمن تكى بها من الفضلاء المتقدمين ، كأبي الفرج ابن الجوزي ، وأبي الفرج الأصبهاني صاحب الأغاني وغيرهما ، فلا يدع أحداً من المتكئين بها إلا وينسب إليه ، تارة لهذا وتارة لذاك ، ثم ارتقى درجة فادعى الشرف ولاث على رأسه عمامة خضراء ، ووسع أكماله ، وسعى حتى جعلوه نقيباً للأشراف بدمهور .

حدثني صاحبنا الأديب الفاضل محمد شكرى أفندى المكي . قال : لقينته مرة وكنت علمت بأمر تلك النسب ، وأردت مداعبته فقلت : يا أبا الفرج إن كنييتك تنبئ عن شرف عظيم ، فلعلك من نسل أبي الفرج ابن الجوزي ، فقال : نعم ياسيدي صدقت وأصابت فراستك . ثم لقينته بعد ذلك بأيام

وقد نسي ما دار بيننا فأعدت عليه الحديث وقلت له : إجادتك في الشعر مع هذه الكنية تدلني على أنك من نسل أبي الفرج البقاء ، فقال : أى نعم وهو الواقع . اهـ . ولا خلاف في أنه كان يعلم قصد محدثه في أمر نسبه ، إلا أنه كان يخرج مخرج الجد ، حتى مع أخص الناس به ، ويفض من ينكر عليه ، فيستظرف منه .

وادعى مرة أنه نال نصيباً وافراً من اللغة بحيث أصبحت لا يشدّ عنه شيء من مفرداتها ، وتمادى في هذه الدهوى وتبجح بها في المجالس ، وتصدر للإجابة عن كل سؤال فيها يطرح عليه ، فتوالت الأسئلة وهو يجيب عنها خابطاً خبط عشواء لا يبالى بمن يحتج عليه بكتب اللغة . وصار الأدباء من أصحابه يرتجلون له ألفاظاً يسألونه عنها فيخترع لها معاني يجيب بها ، وربما أحال نخرصاً على كتب لغوية يعينها ، ونظم له بعضهم بيتاً — كبيت الخنفسار — وسأله عن معناه في جمع كبير من الأدباء — وهو :

وبخرنق الأقيال عاثت فالتثت ورقاء تعترض الأكام بشيظم

فقال : نعم ! هذا بيت لعنرة ، ذكره له صاحب الأغاني وهو يصف به حمامة ، وبخرنق : شيء يشبه نسج العنكبوت وليس به ، يكون بين أغصان الأشجار ، فيقول : إن هذه الحمامة عاشت بين الأقيال أى : الأشجار الكبيرة ، فالتثت قدمها بـ بخرنق أى اشتبكت به ، وأما الشيظم . . . وأراد أن يفسره ، فقطعته أصوات الضحك من جوانب المجلس .

وبالجملة فقد كان خفيف الروح ، محبباً إلى القلوب ، أديباً ظريفاً ، حاضر
الجواب ، حلو النادرة . وكانت وفاته فجأة بدمهور في ثانی ليلة من شهر
ربیع الثانی سنة ١٣١٠ هـ . بعد أن صلى العشاء ، وكان آخر قوله : إنا لله
وإنا إليه راجعون ، فشق نعيه على من عرفه ، وشيع جنازته الألوف . تعمد
الله برحمته .

زين المرصفي

١٢٤٤ — ١٣٠٠ هـ

هو الشيخ زين المرصفي الشافعي من طبقة الشيخ عبد الرحمن الشربيني والشيخ سليم البشري ، إلا أن الشيخ سليماً أكبر منهما سناً ، حضر إلى الأزهر ، وقرأ على كبار الشيوخ به حتى برع وتأهل للتدريس ، ثم جملة الخديو إسماعيل معلماً لولده حسين كامل ، وبسبب مخالطته له ولبن حوله ألم ببعض اللغات ، وسافر مع الأمير حسين إلى القسطنطينية ، وكانت أسواقها لم تزل آهلة بالكتب العربية ، فاقتنى هناك كتباً نفيسة غريبة عن أهل الأزهر . فصار ينقل منها في تأليفه نقولاً يغرب بها عليهم .

ثم استخدم بالمدارس وترقى إلى أن صار كبير المفتشين بها . ولم يزل بهذا المنصب حتى توفاه الله يوم الأربعاء الخامس من جمادى الأولى سنة ١٣٠٠ هـ ، فشيّع جنازته لفيف من العلماء وجمع كبير من الناس ، وأمر ناظر المعارف (١) فصار فيها من كل مدرسة فريق من تلاميذها ، وأتاب عنه نائباً حضرها .

ولما بلغوا به الجامع الأزهر للصلاة عليه ، وقف الشيخ حمزة فتح الله فأبته وروثاه بيئتين من نظمه ، هما :

(١) وزير التربية والتعليم — الآن .

سقى الله من صوب الرضا أعظماً هوى
بها ركن بيت العلم إذ دكه الحنينُ
فلا غرو إن أضحت وجوه علومنا
مشوَّهة ، فالיום فارقها «زين»
رحمه الله رحمة واسعة .

وفي مقدمة شرح أحمد (بك) الحسينى لكتاب الأم للإمام الشافعى
الذى سماه بمرشد الأنام ، لبرأم الإمام ، ما نصه : « زين المرصفي كان عالماً فاضلاً
أخذ عن علماء وقته ، وجدّ واجتهد حتى صار من أكار العلماء . وكان ذهب
مع الرسالة المصرية إلى بلاد فرنسا زمن الخديو إسماعيل ، وكان يجيد اللغة
الفرنساوية ، وله كتابات في المنطق والحكمة . وكانت وفاته سنة ١٣٠٠ هـ » .

حَسَنَ عَبْدًا الْبَاسِطِ الْحَوِيِّ

١٢٤٥ - ١٣٠٠ هـ

كان حسن أفندي عبد الباسط الحوِّيّ خلاسى اللون يشبه الحبشى، وبوجهه أثر جُدري . كان أديباً شاعراً هجاء خبيث اللسان مجيداً ، إلا أنه مقل . استخدم بالإسكندرية - فكان رئيس قلم فى الضبطية حوالى سنة ١٢٨٥ هـ ، وبقى بها إلى سنة ١٢٩٠ هـ وكان بها إذ ذاك مصطفى صبحى (باشا) الشاعر المشهور ، فكان يجتمع به من بها من الأدباء والشعراء فيسمرون ممّا ويحيون الليالى بالمذاكرة وإنشاد الشعر ، واتفقوا على تسمية مجلسهم بالمربد ، وألاّ يقبلوا به أحداً إلا إذا ارتضوا به جميعاً - فكان المترجم ممن رضوا به أن يكون من شعراء «المربد» . (١)

وكانت تمر عليهم ليالٍ يقترحون فيها ارتجال الشعر ، ويعينون عدد الأبيات والوقت الذى يجب نظمها فيه ، فكان أحدهم إذا تعذرت عليه قافية وأعجله الوقت ارتجل كلمة لا معنى لها أو فى معنى لا يوافق السياق وتمم بها البيت ، فاجتمعت لهم من ذلك ألفاظ غريبة مضحكة سموها بالألفاظ المربدية !

ثم تنقلت الحال بالمترجم ، فاستخدم معاوناً بمديرية الشرقية . ثم فصل

(١) المربد : من أسماء أسواق العرب القديمة ، مثل : هكاظ .

فضاق به العيش وفتح حانوتاً بالزقاق للصيدلة القديمة المسماة الآن بالطيارة ،
وكان أمره بها عجيباً ، فإنه اقتنى كتباً مثل مفردات الطب وقانون ابن سينا ،
وصار إذا طلب منه أحدهم بيع عقار من العقاقير سأله عن سبب حاجته إليه
وقام إلى تلك الكتب فاستخرج له منها مزاياه ، وما يداوى به من العلل .
وبقى مدة على ذلك حتى ، توفاه الله بعد سنة ١٣٠٠ هـ

ومن شعره يمدح محمداً ففتح الباب أفندى كبير كتاب ديوان البحر :

رأيت الملا ترتاد^(١) بعلا لنفسها

وقد خطبتها قبل ذاك الأواهل

فقمنا سراعاً قاصدين لحدرها

عساها بنا ترضى ويُجلى التواصل

فلما رأتنا واقفين ببابها

أشارت « لفتح الباب » منها الأناهل

وكان رحمه الله على خبث لسانه ، طرفه من الطرف ، وأعجوبة
من العجائب ، في حسن المناداة وحضور الذهن وسرعة الجواب .

رآه مرة بعضهم وهو مسافر إلى الزقازيق فى القطار ، ومعه جراب
يحملة بيده ، فقال له مداعباً : أظن هذا جراب الحاوى — أى :
المشعبذ .

فقال : لا ياسيدى ، هذا جراب الحوىّ !

رَضَوَانُ مُحَمَّدٍ الْمُخَلَّلَاتِي

١٢٥٠ هـ - ١٣١١ هـ

هو الأستاذ الحجة الثقة في عصره ، شيخنا العلامة الجليل الشيخ رضوان ابن محمد بن سليمان المسكنى بأبي عيد المعروف بالمخللاتي ، الشافعي المذهب . ولد بالقاهرة في حدود سنة ١٢٥٠ هـ - ١٨٣٤ م . وبعد أن حفظ القرآن الكريم وجوّده تلقى علومه بالجامع الأزهر على علماء عصره ، ثم تخصص في دراسة علوم القرآن « القراءات والرسم » فنبغ فيها نبوغاً عظيماً ، وأنتج فيها مؤلفات قيمة دلت على سعة علمه ووفرة اطلاعه ، حتى شهد له بالتفرد علماء عصره ، وعلى رأسهم شيخ القراء الشيخ محمد المتولي .

وقد أجازته في سنة ١٢٧٧ هـ - ١٨٦٠ م ، صديقه ومعاصره الشيخ محمد عبده السرسى ، وكان من أجلة علماء الأزهر ، وعنهما تلقى علم القراءات خلق كثير ، ويقول في إجازته له :

« ولما جاد الزمان بحبيبنا أعزّ الإخوان في الله تعالى ، الشيخ رضوان ابن محمد بن سليمان ، الشهير بأبي عيد .. جاء وقرأ على ختمة كاملة من أولها إلى آخرها ، عن طريق الشاطبية والدرّة معاً ، بالتحريّر والنجويد ، على أنم بيان وأكمل عنوان ، واستجازنى فأجزته بأن يقرأ ويقرى في أى مكان حل . »

ويقرب الشيخ محمد المتولى شيخ القراء أول مؤلفاته : (فتح المقفلات)

بقوله :

« ... أما بعد فقد أطلعت على هذا التصنيف البديع ، اللطيف الصنيع ، فوجدته في غاية الضبط والإتقان ، ونهاية النفاسة والإحسان [شمساً في الاقتدا] ويدراً في الاهتداء ، فياله من عروس يفرح شذاه ، ويلوح سناه ، قد تحلى فيه بدر المغانى في أصداف المباني ، جعله الله خالصاً لوجهه الكريم ، وغفر لن تلقاه بقلب سليم . وأوجب لمؤلفه رضوانه ، ووفقه للخير وأمانه . قاله بلسانه ، ورضيه بجنانه ، ذو التقصير الكلى ، محمد المتولى ، عفى عنه آمين . »

وكذلك قرظ كتابه (إرشاد القراء والكاتبين ، إلى معرفة رسم الكتاب المبين) ومما جاء فيه :

« ... أما بعد — فقد سمعت هذا الكتاب الرائق ، والسفر البليغ الفائق ، فوجدته في باب آية ، قد بلغ من جادة الإفادة الغاية . قد نظم مؤلفه فيه شمل المتفرقات ، بعد التفرق والشتات . ونبه على عجيب أوضاع الرسوم ، وبين فيه ما لأنواع الضبط من الرقوم ، يتعين على قراء القرآن الكريم مطالعته ، ويتأكد على كتاب المصاحف مدارسته ومراجعته . ويحتاج إليه من يريد التحرى والضبط ، حيث لم يقع له نظير في علم الخط . كيف لا ومتعلقه أحد أركان القرآن ، وأهم ما تدعو إليه ضرورة المقرئ على ممر الزمان . فياله من كتاب أينعت أثماره ، وسطمت بين سطوره أنواره . أوضح فيه مؤلفه خفايا الرسوم بأفصح إيضاح ، وفتح من أبواب رقوم الضبط لكل ضابط مطلوبه

بدون مفتاح . به أمن كتاب المصاحف من الزلّ ، وحفظوا إذ صاروا بسببه
في جنةٍ من طوارق الخلل .

(ففى كلّ لفظ منه روض من المنى

وفى كلّ سطر منه عقدٌ من الدرّ)

جعله الله مقبولا لديه ، وسبباً للفوز يوم العرض عليه . قاله بلسانه ، ورضيه
بجنانه ، ذو التقصير الكلى ، محمد الشهير بالمتولى .

وكذلك قرظ كتابه (شفاء الصدور) بقوله :

« ... أما بعد فقد أطلعت على هذا الكتاب المسمى : « شفاء الصدور ،
بذكر قراءات الأئمة السبعة البدور » فوجدته صريح المباني ، صحيح المعاني .
مفيداً فى فنه ، فريداً فى شأنه . دلى جودة من التسهيل والتقريب ، وغاية من
التحرير والتهذيب ، سيما وقد تضمن كتاب « حرز الأمانى » ليقبل على من
تلقاه بوجه النهانى ، جملة الله مقبولا لديه ، وأثاب مؤلفه رضوانه يوم العرض
عليه . آمين . »

وقرظ الشيخ حسن الجريسي الملقب بالديب كتابه : « إرشاد القراء
والكاتبين ، إلى معرفة رسم الكتاب المبين » ، كما قرظه أيضاً العالم الجليل
السيد محمد عوض الدمياطى تقریظات تعبر عن تقديرهما لهذا المؤلف .

وكان لنبوغ الشيخ رضوان فى علمى القراءات والرسم أثر فى تصويب

المصاحف وتحقيق نشرها ، فأشرف على طبع مصحفٍ وضع له مقدمة ، نشره الشيخ أبوزيد سنة ١٣٠٨ هـ ١٨٩٠ م . ويعتبر من أضبط المصاحف . وقد تلقى عليه كثيرون ، واستفادوا من علمه وأجازهم ، وقد وقفت على إجازة منه إلى تلميذه الشيخ محمد البدرى .

ولم يكن نبوغ المترجم مقصوراً على علوم القرآن ، بل نبغ في العلوم الشرعية والعقلية والعربية والأدب ، فدرس النحو في مدرسة حافظ باشا ، وتلمذنا عليه ، فأخذنا عنه العلوم العربية والفنون الأدبية ، وكان رحمه الله يفتخر بالأخذ عنه . كما تلمذ عليه من أولاد شقيقتنا المغفور لها السيدة عائشة : محمود وإسماعيل .

وتولى الخطابة في مسجد جوهر المعينى القريب من داره بغيط العدة ، وخطب احتساباً في مسجد سلطان شاه ، وكان يلقي درساً في مسجد الأمير حسين ويخطب فيه الجمعة أحياناً .

وقد بارك الله في حياته ، فأنجبت إنتاجاً علمياً في مختلف العلوم ، كما نقل الكثير من المؤلفات بخطه ، وكتب نسخاً من مؤلفاته أودعت المكتبات العامة ، فضلاً عن نسخه الخاصة .

انتقل إلى رحمة الله تعالى في يوم الجمعة ١٥ جمادى الأولى سنة ١٣١١ هـ ودفن في جبانة باب الوزير بالقرب من الضريح المعروف بمحمد بن الحنفية ، وترك مجموعة من المؤلفات القيمة مازالت مخطوطة ، وهى :

١ — كتاب فتح المقفلات ، لما تضمنه نظم الحرز والدرة من القراءات ،
أوله : الحمد لله الذى أودع كتابه العزيز كنوز معانى العلوم . فرغ من تأليفه
فى الخامس والعشرين من شهر ذى الحجة سنة ١٢٨٦ هـ . وهو مؤلف كبير
فى ٢٢٤ ورقة مسطرة ٢١ سطراً . ويقول فى ختام الكتاب : « يقول مشيد
مبانيه ، ومحرر ألفاظه ومعانيه ، هذا آخر ما يسره الله سبحانه وتعالى من جمع
هذا الكتاب المستطاب ، الصافى ورده لأولى الألباب . فلقد أعملت الفكرة
فى تنقيحه ، وبذلت الجهد فى تصحيحه ، حسباً تلقيت عن أشياخى السادة
الكرام ، مع مراجعة نفائس النفوس من الرغبات . والمرجو من طالع فيه
فاطلع على هفوة أو زلة ألا يبادر قبل التحقق بالإنكار ، فذلك أمر لم يلم
معه من كان مثله .

(والعذر عند خيار الناس مقبول)

واللطف من شميم السادات مأمول)

والكريم من يقبل العثرات ، ويعفو عن السيئات ، خصوصاً من مثلى
البائس الفقير ، فإن ذهنى كليل وسهوى كثير ، وأى لسان من الأنواع
البشرية — ماعدا الحضرات النبوية — مصون عن الغلط ، أو أى مؤلف ألف
بين العالمين حتى قيل من جميعهم ما أخطأ قط .

وإذا كنت أيها الأخ تعلم أن ذلك أمر جائر عليك ، وهذا المؤلف
شئ قد ساقه الله بلا مشقة عليك إليك ، فاحمد الله مولاك ، وقابل بالجميل

واعذر أخاك . واشكر للناس ، فمن لم يشكر الناس لم يشكر الله ، ومن نظر إلى عيب أخيه ونسى عيب نفسه فقد عيب عيانه . ثم خذ الدر من الصدف ، وانتزح الفرص فإنها صدف . وانظر إلى القول دون القائل ، وإلا فليس ذلك نعمته طائل . ولا تأخذك العزة استكباراً ، ولا تملك الأنفة على الإعراض استحقاراً لصاحبه واستصغاراً . بل انظر نظر مستخير مستبصر ، فإن رأيت ما يسرك فاقبل وأقبل وإلا فادبر . والحمد لله على ما يوليه حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه .

وبهذا الختام الملىء بالتواضع والاعتزاز ختم الكثير من مؤلفاته .
ومنها :

٢ — كتاب شفاء الصدور ، بذكر قراءات الأئمة السبعة البدور . فرغ من تأليفه سنة ١٢٩١ هـ — ١٨٧٤ م .

٣ — أرجوزة في التوحيد ، فرغ من تأليفها سنة ١٢٩٣ هـ — ١٨٧٦ م .

٤ — انتشاق النفحات المسكية ، من طى خميس البردة الشريفة الحمديّة . فرغ من نظمها سنة ١٢٩٤ هـ — ١٨٧٧ م .

٥ — انتشاق الروائح المسكية ، من طى خميس القصيدة النونية السويجمية —

للإمام اللوذعي عبد الرحيم البرعى فرغ من نظمها سنة ١٢٩٤ هـ —

١٨٧٧ م .

٦ — كتاب إرشاد القراء والكاتبين إلى معرفة رسم الكتاب المبين في ١٩٠

ورقة مسطرة ٢١ سطرًا . فرغ من تأليفه سنة ١٢٩٦ هـ — ١٨٧٩ م .
أوله : الحمد لله الذي رسم في صحائف الأوقات خطوط لطائف الإنحاف ...

٧ — القول الوجيز ، في فواصل الكتاب العزيز . أوله : الحمد لله الواحد
لا من قلة وعدّ ، الأحد فخاله من كيفية ولاحد . فرغ من تأليفه سنة
١٢٩٧ هـ ١٨٨٠ م . وعدد أوراقه ١٠٦ مسطرة ٢١ سطرًا .

٨ — الإفاضة الربانية ، بشرح ألفاظ البردة المحمدية . فرغ من تأليفه سنة
١٣٠٥ هـ — ١٨٨٧ م . أوله : حمدًا لمن أطلع أزهار الأسرار في رياض
الأفكار بتسبيح الأشواق ، وأسجع بلابل الأيك في البكور والآصال
بتحميد العشاق ، جل شأنه من على أهل المحبة والوداد ، باقتفاء آثار
أشرف العباد، محمد صفوة الخلق ... وهو شرح كبير في ٢٠٠ ورقة مسطرة
٢١ سطرًا .

٩ — رسالة فيما رواه ورش في موضوع « آآن » من طريق « حرز الأمانى »
أولها : حمدًا لمن أنزل القرآن نوراً ... فرغ من تأليفه سنة ١٣٠٨ هـ —
١٨٩٠ م .

١٠ — مقدمة مصحف ، طبع سنة ١٣٠٧ هـ — ١٨٩٠ م .

١١ — ديوان خطب منبرية (الكوكب السائر ، فيما يتعلق بخطب المنابر) .

١٢ — اللؤلؤ المنظوم ، فيما يلزم من الشروط في حق الإمام والمأموم . وهي رسالة

في شرح منظومة له فيما يتعلق بالمأموم والإمام . في ٣٠ ورقة مسطرة

١٥ سطرًا ، فرغ من تأليفه في شهر المحرم سنة ١٣٠٨ هـ

ولما توفي (١) رحمه الله رثاه أحد الفضلاء بهذه الأبيات :

مالعروض الدمع فاض هاطلا يجرى دما على الحدود نازلا
أظنّ في مصر قضى إمامها نجباً ، وجدّ للكريم راحلا
وذاك رضوان النجيب المنتقى من بالقران زين المحافلا
فكم تأليف له .. بنفسه منها سقى القراء عذبا سائلا
وكم لطفه صاغ أغلى مدح كبردة ألبسها غلائلا
حين لمولاه على الظاهر سرى وبات ضيفاً للكريم آملا
رحمة ربى نظمت تاريخه رضوان للجنان جدّ نائلا

١٠٥٧ ١٦٤ ٧ ٨٣

١٣١١ هـ

(١) لما عنت الحكومة بطبع المصحف الكريم في سنة ١٣٤٢ هـ بإشراف نخبة من العلماء كان اعتمادها في ضبطه على مؤلفيه : (١) إرشاد القراء والكتابيين (٢) القول الوجيز في فواصل الكتاب العزيز .

حَسَنُ الطَّوِيلُ

١٢٥٠ هـ — ١٣١٥ هـ

هو شيخنا الإمام العلامة حسن بن أحمد بن علي ، شيخ الشيوخ وأستاذ الأستاذين ، وأحد من تفرد في مصر بالبراعة في المعقول والمنقول . أتقن العلوم العديدة مع الزهد الصحيح والورع وعلو النفس والتأدب بآداب الشرع والتمسك بالكالات . ولد - كما سمعت من تلميذه الخالص الشيخ أحمد أبي خطوة - بقرية منية شهالة ، إحدى قرى المنوفية حوالى سنة ١٢٥٠ هـ . وذكر الشيخ بشير الظافر في كتابه «اليواقيت الثمينة» ، في أعيان مذهب عالم المدينة ، أنه ولد سنة ١٢٥٦ هـ .

وتربى بهذه القرية ، فقرأ القرآن الكريم وحفظه ، ثم انتقل إلى طنطا وهو صغير ، فاشتغل بتجويد القرآن وحفظ المتون بالمسجد الأحمدى نحو سنتين أو ثلاث . ثم حضر للقاهرة واشتغل بطلب العلم بالجامع الأزهر ، فقرأ على شيوخ العصر مثل الشيخ محمد عlish المالكي ، والشيخ حسن العدوى الحمزاوى ، والشيخ إبراهيم السقا ، والشيخ محمد الأشموني ، والشيخ محمد الإنابى ، والشيخ أحمد شرف الدين المرصنى . فظهرت عليه النجابة ، وابتدأ في حضور « السعد » . وكان من دأبه في أول أمره معاكسة الشيوخ في الدروس بكثرة

الأسئلة والمناقشات . حتى حدث ما اضطره إلى الانقطاع عن الأزهر . وسبب ذلك أن أبناء العمد وأقاربهم طلبوا للدخول في الجندية بقانون وضع لذلك في عهد سعيد وإلى مصر سابقاً . ولما كان المترجم من أقارب بعض مشايخ قريته ، طلب وجند ، وبقي مواظباً على الصلوات والأوراد ، وكان الوالى يكره من الجند من يصلى ...

وحدث أن المترجم جاءه من شيخه الشيخ أحمد شرف الدين المرصفي كتاب فيه استغاثة يأمره بتلاوتها عقب كل صلاة ، رجاء أن تفرج كربته وتخلصه من الجندية ، فوقع الكتاب فى أيديهم ، وعدوه لذلك مذنباً ، وكان عقاب المذنبين عندهم إهمال تعليمهم الفنون العسكرية وتشغيلهم فى السكك الحديدية وما أشبهها من الأعمال الشاقة ، فكان المترجم يشتغل فى هذه الأعمال بهمة زائدة تأديباً لنفسه ، لأنه ظن ما وقع له عقاباً على جراته على مشايخه ، وكان سعيد باشا يلقب المطيعين من الجند بالفراعنة ، والعاصين المذنبين بالتمردة ، فغضب مرة على التمردة وأمر بطردهم من الجيش ، فخرجوا منه ، إلا أنهم بقوا تابعين ، وهم ما كانوا يسمونهم « بالمساكر الإمدادية » وخرج المترجم معهم ، فأقام بقريته مدة .

وكان قبل ذلك يجتمع مع الشيخ خالد أحد مشايخ الطرق ، فرأى أن يسافر إليه ، فسافر إلى بلدته المسماة بالسريرية من أعمال « منية ابن الخصيب »^(١) ،

(١) محافظة المنيا الآن .

ولزمه بضعة أشهر عكف فيها على الاشتغال بالعلم والطرق الصوفية .

ثم طلب إلى الجندي مرة ثانية ، فذهب إليه أبوه ليحضره ، من عند الشيخ خالد ، وحاول هذا منعه فلم يرض ، بل عاد مع أبيه إلى قرينته ، وتبين أنهم أهملوا طلبه ، فحمد الله .

وأمره والده بالبقاء معه في القرية ، وحظر عليه أن يعود إلى الصعيد ، فضايق المترجم بهذا الأمر ، وخرج من القرية بغير علم أبيه وهو لا يملك شيئاً ، وقصد القاهرة ما شيئاً ، يبيت في أية بلدة تصادفه ، حتى وصل .

وذهب إلى الأزهر ، فصادف الشيخ محمد السقارى في طريقه ، فلما رأى المترجم أسرع إليه وهش له ، وأخبره أنه يطلبه من مدة ، ثم أنزله بداره ، وحلف أن يبقى بها شهراً لا يتكلف شيئاً من عنده . وكان مراد السقارى أن ينظم قصيدة يمدح بها أحد الأمراء ، فنظمها له ، وأخذ السقارى عليها أربعين ديناراً جائزة .

ولما انقضى الشهر حف الله المترجم بعنايته ، فطلبه الشيخ حسن العدوى لتصحيح البخارى ، وكان قد شرع في طبعه ، فانتفع بأجر التصحيح . ثم طلب إلى ديوان الجهادية لتصحيح ما يطبع به ، فقابل هناك أحمد عبيد بك رئيس الترجمة ، وامتنحه فأعجب به ، وكاد يطير فرحاً ، وقال عنه : « هذا جوهرة خفيت علينا » واستخدمه لتصحيح بالديوان ، وسعى له حتى عمو اسمه من الجيش ، حتى لا يعاد طلبه .

وفي هذه المدة عاد المترجم لطلب العلم والاشتغال به ، مع القيام بالتصحيح بالديوان ، حتى شهد له شيوخه بالتأهيل للتدريس ، فدرس بالأزهر . وكان أول درس قرأه في شوال سنة ١٢٨٣ هـ وابتدأ فيه بالقراءة في الأزهرية . ولم يقتصر رحمه الله على العلوم المتداولة بالأزهر ، بل بحث ونقب ، واجتمع بالشيخ محمد أكرم الأفغانى فتلقى عنه العلوم الحكيمية ، وبرع فيها ، وتلقى عن تلميذه خلاصة الحساب لبهاء الدين العاملى ، ونظر فى الهندسة والجبر وسائر العلوم الرياضية ، وقرأ التاريخ قراءة إمعان وتدبر ، وطالع كتب اللغة والأدب ، ونظم الشعر السهل ، وكتب الترسل البديع ، وكان لا يسمع عن أحد يعرف علماً إلا سعى إليه ليتلقاه عنه كائناً من كان ، حتى صار نسيج وحده ، وقريع دهره فى سائر العلوم ، مع بعد النظر فى السياسة ، وسعة العقل ، وسلامة العقيدة ، وشدة الإنكار على البدع المستحدثات فى الدين .

وقد قرأ عليه فى الأزهر كثيرون من علمائه المشهورين . فكان الشيخ الأجل أحمد أبو خطوه ، والشيخ الإمام محمد عبده ، والسيد أحمد الشريف ، وإبراهيم (بك) اللقانى ، والشيخ محمد راضى البولينى - فى الطبقة الأولى من تلاميذه .

ثم قرأت عليه طبقة ثانية منها الشيخ عبد الرحمن فودة ، والشيخ محمد الغربى ، والشيخ عبد الرحمن قراة . وقرأ عليه أيضاً الشيخ محمد بنحيت ، والشيخ داغر ، والشيخ محمد المغربى ، والشيخ أحمد الزرقانى ، وغيرهم من لا يحصون ، واخص به الشيخ أحمد أبو خطوة ، والشيخ

راضى البولينى ، والشيخ عبد الرحمن فوده ، والشيخ عبد الرحمن قراة . فكانوا يقرأون عليه فى داره دروساً غير الدروس الأزهرية ، وصحبوه ولازموه ، فانتفعوا به فى دينهم وأخلاقهم ، فوق انتفاعهم بمله .

ثم نقل إلى نظارة المعارف ، وعين للتفتيش فيها . ولما مات الشيخ زيه ، المرصنى مفتشها الأول سنة ١٣٠٠ هـ وأقيم بدله الشيخ حمزه فتح الله المفتش الثانى جعل المترجم مفتشاً ثانياً . ثم نقل مدرساً بمدرسة دار العلوم . فعم الانتفاع به ونخرج عليه أحسن من نراهم الآن^(١) من الأساتذة المتخرجين فى هذه المدرسة ، كالشيخ الفاضل حسن منصور ، والشيخ محمد المهدي ، والشيخ محمد الحضري ، والشيخ عبد الوهاب النجار .

وبقى فى هذه المدرسة إلى سنة ١٣١٧ هـ وكانوا قد شرعوا فى الامتحان قبل الاجازة المدرسية كالعادة ، فلما كانت ليلة السبت ١٧ صفر سهر كمادته ، ثم ذهب لداره معافى ليس به شىء ، واستيقظ فتوضأ وصلى الصبح ، ثم طلب الإفطار والقهوة ، وأخذ غفوة كان فيها القضاء المحنوم ، فلم تشرق شمس ذلك اليوم إلا والنعاة ينعونه ، والمؤذنون يؤذنون على المآذن كالعادة فى موت كبار العلماء ، وأم داره شيخ الأزهر الشيخ عبد الرحمن الشربى ، والشيخ محمد عبده المفتى ، وجميع العلماء والفضلاء ، وكبار نظارة المعارف ، وتلاميذه من الأزهر ودار العلوم ، وشيعت جنازته تشيماً سنياً ، فصلوا عليه فى الأزهر ودفنوه بمقابر المجاورين . رحمه الله وغفر له عدد حسناته .

(١) أى فى عهد المؤلف المنفور له العلامة أحمد تيمور باشا رحمه الله

وكان من عادته الخروج إلى الريف كل خميس ترويحاً للنفس ، فكان يذهب إلى الأميرية من ضواحي القاهرة عند تلميذه الشيخ عبد الرحمن فوده ، فيقضى عنده الخميس والجمعة ويعود يوم السبت ، فلما عرفته صار يذهب للأميرية بعض الأخصى ويسافر في بعضها إلى ضيعتنا التي بقويسنا ، أو إلى حلوان حينما نسكن بها شتاء ، فكنت أقضى معه هذين اليومين في مطالعة واشتغال ، حتى في حالة المشى والتنزه كنت أحمل الكتاب معي وأسمعه فيه ، فيقرر لي المسائل ونحن سائران .

وكان رحمه الله سني العقيدة ، صوفي المشرب ، لا يحيد عن الشرع قيد إصبع ، آخذاً بمذهب الإمام ابن تيمية في مسألة الاستغاثة بالقبور والاستشفاء بالموتى ، منكرآ على المبتدعة أشد إنكار . آية من آيات الله في معرفة التفسير وحل مشكلات الكتاب المبين ، متضلماً من الحديث ، متحصناً بالشرعة في كل علم يقرؤه من كلام أو حكمة أو تصوف أو رياضيات أو طبيعيات . وخص باستحضار الآيات القرآنية والأحاديث النبوية في الاستشهاد بها على حل المشكلات الدينية ، فكان أمره في ذلك عجباً ، وشأنه فيه مستغرباً — ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

ومع انحراف علماء الأزهر عنه ، لإنكاره عليهم بدعهم وما درجوا عليه ، فإنهم كانوا مقرين بفضلته ، وكثيراً ما كانوا يحتاجون إليه في معرفة أسرار الشريعة ، وحل مشكلاتها ، والرد على الطاعنين عليها من أرباب النحل الأخرى أو المرتدين .

أما أخلاقه فزهّد غريب ، وعلو نفس عن الدنيا ، وبعد عن الرياء ،
وتواضع مع كل إنسان ، وسداجة في المطعم والملبس والسكن . لا ينفق على
نفسه من مرتبه إلا القليل ، ويتصدق بالباقي في الخفاء ، فلما مات قام الصراخ
في دور كثيرة يسكنها فقراء ، وأرامل ، كان يعلمهم كل شهر بما فضل من نفقته ،
وما علم بهم أحد قبل موته ، حتى أقرب الناس إليه ، وأخصهم به .

وكان كثير الاشتغال بأمور المسلمين ، دائم الهموم لما أصابهم من التأخر
في مشارق الأرض ومغاربها ، منتظراً فرجاً يأتيهم ، ولطفاً من الله بحفهم ،
فتقوم فيهم دولة شمارها الدين ، تقوى على جمع شملهم . ولذلك لما قام المهدي
بالسودان ، وانتصر انتصاراته المشهورة ، واستولى على البلاد السودانية ، أحسن
الترجم فيه الظن ، وقام بنصرته بقلبه ولسانه ، وبلغ الإنجليز ذلك ، فسيروا
وراءه عيناً يخبرهم بحركاته ومسكناته ، وكاد يقع فيما لا نحمد عقباء ، لو لا أن
سلمه الله .

ولمداومة اشتغاله بالإقراء وتربية النفوس لم يؤلف تأليفاً — غير أن نظارة
المعارف لما كلفت كل مدرس أن يجمع ما يلقيه من الدروس ، وكان يدرس
التفسير بمدرسة دار العلوم^(١) شرع في جمع ذلك في كتاب سماه «عنوان البيان»
لم يطبع منه غير المقدمة — سنة ١٣١٦ هـ أي قبل وفاته بسنة .

ومن غريب المصادفات أنه زارنى^(١) قبل وفاته بيومين في ليلة مقمرة
فجلسنا في صحن الدار نلعب الشطرنج ، وكان مولماً به مع قلة إجادته فيه ،
فقال لى عندما أراد الذهاب : نحن الآن في الامتحان ، وقد قربت الإجازة ،
وصدرى ضيق في هذه الأيام من الناس ، ونفسى تبحج للعزلة . فهل تعرف لى
مكاناً أقضى فيه بعض أيام بعيداً عنهم ؟ فقلت : ياسيدى ، إذا انتهى
الامتحان فالأوفى أن نسافر معاً إلى ضيعتنا التى بقويسنا فنخلو فيها بكتاب
نقرؤه ، فقال : نعم الرأى هذا ، وسأستصحب معى ولدى حسناً ليشارك معنا
في القراءة . ثم لم يمض يومان حتى نقله الله إلى جواره ، ويسر له العزلة ولكن
في دار قراره ، فأصبحت فيه مصيبة لم أصبها في بعيد ولا قريب ، لما كان له
على من الفضل ، ولو لم يكن له على سوى تصحيح العقيدة وتأديبى بأداب
الحنيفية السمحة لكفى .

أما سبب اجتماعى به وقراءتى عليه فإنى كنت خرجت من المدارس بعد
تلقي ما يتلقى بها من العلوم المعروفة وأنا في سن العشرين . وقد علق بالعقيدة
شئ من آثار التربية بهذه المدارس ، إلا أنى كنت مولماً من الصغر بالإسلام
ومحاسنه ، والمطالعة في السيرة النبوية ، ومناقب الأصحاب والخلفاء الراشدين ،
فكان ينشرح صدرى لأشياء ، وينقبض من أشياء تعرض لى فيها شبهات ،
ثم كنت أعرض ما يظهر لى من مكارم الشريعة ومقاصدها على ما عليه الناس
من البدع والمحدثات التى تمسكوا بها وجعلوها من الأصول الدينية ، فأجد

(١) أى زار المغفور له العلامة أحمد تيمور باشا .

التناقض والنصادم ، فصرت أتردد على كثير من كبار علماء الأزهر وغيرهم ،
لعل أجد عندهم مفرجاً ، فأراهم أحرص من العامة على هذه الخزعبلات ، حتى
كدت أحكم بأنهما من الدين ، وأن الأمر دائر بين شيئين ، إما أن يكون
الدين دين خرافات وخزعبلات تنفر منها الطباع السليمة ، وإما أن يكون
ما نراه حقاً ، ولكن يمنعنا من قبوله إلحاد تأصل في النفس . حتى أرشدني
بعض الأصحاب المترجم ، فأخذت في السؤال عنه من أهل العلم ، فكانوا
ينفرونني منه ، حتى بالغ بعضهم — عامله الله بما يستحق — ورماه بالزندقة .
فقلت : إذا كنت لم أجد طلبتي عند من تسمونهم بالصلاح والورع ، فلعلني
أصيبها عند الزنادقة . ثم سعت في الاجتماع به ، وسألته القراءة عليه والاهتداء
بهديه ، فقرأت عليه العلوم العربية والمنطق ، وأعنت عليه الصرف بتوسع ،
وعلوم البلاغة . ثم قرأت طرفاً من الحكمة في شرح الدواني على هياكل
النور للسهروردي ، وشرح « رسالة الزوراء » وغيرها . ولما رأني مجدداً في
التحصيل ، قرر لي درساً ثانياً بعد العشاء كنا نقرأ فيه كتب الأدب ونحوها .
وأنا في كل هذه المدة أستوضح منه ما أشكل عليّ فيحله لي ، فكان اجتماعي
به ومصاحبتي إياه من أكبر نعم الله عليّ في ديني .

وكثيراً ما كان يغضب مني ويؤنبني إذا رأي مني تهاوناً في الصلاة .

فعليه رحمة الله تعالى .

مُصْطَفَى السَّفْطَى

١٢٥٠ - ١٣٢٧ هـ

الشيخ مصطفى السفطى ابن مصطفى الفا كمانى السفطى ابن على السفطى ابن أحمد شلبي ، نسبة إلى سفط القطايا .

ولد بمصر القاهرة حوالى سنة ١٢٥٠ هـ وأرسل إلى المكتب فى السابعة من سنه ، ثم تنقل من مكتب لآخر حتى حفظ القرآن الكريم ، واشتغل بتجويده فى الأزهر ، ثم شرع فى طلب العلم على شيوخ عصره ، فقرأ الكفراوى على أحد العلماء المبتدئين فى التدريس ، فكان يحفظ العبارات ولا يفقه لها معنى . ولما أعيا عليه أمره ، وتعذر عليه إعراب أمثلة من غير هذا الكتاب أعاد قراءته ولكنه لم يستفد شيئاً . وكان بجوار داره دار السيد أحمد البقل أحد المدرسين بالمدارس ، وله ولد أراد أن يقرأ القرآن مع المترجم ، فشكا المترجم له من تعسر النحو عليه ، فأشار عليه بشراء متن الأجرومية وأمره أن يحفظه ، ثم شرع فى إعرابه له على الطريقة الأزهرية فلم يستفد شيئاً أيضاً ، وشكا من ذلك للشيخ محمد الدمهورى فأمره بترك طلب النحو كليّة ، حتى ينسى ما علق بذهنه منه ، ففعل واقتصر على الفقه ، فحضر ابن قاسم على الشيخ البيجورى ، وكان يتفهمه بخلاف النحو ، فالت نفسه إليه فحضره مرة ثانية على الشيخ فتوح البجيرمى ، ثم مرة ثالثة على الشيخ عبد الرحمن

القباني أحد تلاميذ الشيخ فتوح المذكور ، وكان يطالعه لإخوانه المبتدئين .

ثم قرأ السكندرية المتداولة بالأزهر ، ولم تغتر نفسه عن طلب النحو على ما لاقاه فيه من الصعوبة ، فصار يتردد على الشيخ محمد الدمنهوري ومعه متن الأجرومية فقط ، وصار الشيخ يقول له : اقرأ هذه الجملة ، ثم تفهم معناها بنفسك ولا تنظر لأقوال الشرح ، فيفعل - فتارة كان يخطئ وتارة يصيب . وسهل عليه فهم هذا العلم بهذه الطريقة . وكان أحد أصحابه مبتلى بمثل ما ابتلى به . وأخبره أن عند على أفندي العروسيّ شرحاً للرمل على الأجرومية فاستعاراه منه وقرأه معاً ، فكانا يفهمان ما فيه فهماً جيداً .

ثم اجتمع المترجم بإسنان كفيف البصر اسمه الشيخ على الفيومي له باع في العربية ، فقرأ عليه مع صاحبه كتاب الشيخ خالد والأزهرية والقطر وابن عقيل . ثم أعاد المترجم القطر على الشيخ الشبيني بالأزهر ، وقرأ الخطيب على الشيخ على الأشموني عم الشيخ محمد الأشموني الشهير . وقرأ التحرير والمنهيج دلى الشيخ مصطفى المباط ، وهو آخر حضوره في الفقه .

ثم قرأ علوم البلاغة بالأزهر ، وقرأ العروض مع إعادة البيان بالمطالعة مع بعض تلاميذ رقاها (بك) كقدرى (باشا) وإبراهيم (بك) مرزوق .

وبعد ذلك انتخب مدرساً بالمدرسة التجهيزية سنة ١٢٩٠ هـ في أول ظلمة رياض (باشا) على المعارف . وكانوا إذ ذاك يقرأون بها الأنموذج للزحشرى في النحو ، ثم كلف بتأليف رسالة في العرف ففعل ، وقرأها للتلاميذ نحو ثلاث

سنوات ، ثم اتفق مع بعض المدرسين على تأليف رسائل في البلاغة والصرف ،
بتوسع أبسط من الرسالة الأولى ، وقرأ بها سنوات .

ثم أمر بقراءة العروض والقوافي في المدارس ، فاستحسن رسالة أبي الجيش
وأقرأها . ثم وضع رسالة في العروض والقوافي أتم بها ما أرادته أبو الجيش ،
ولكن وقع ما منعه من تقديمها للمدارس ، ثم كلف بوضع رسالة في علم الرسم
فوضع رسالته « عنوان النجاة في قواعد الكتابة » وقرئت بالمدارس .

ونقل بعد ذلك للمدرسة الابتدائية المسماة « بالمبتديان » وكان ذلك سنة
١٣٠٦ هـ فألف بها رسالة بالاشتراك مع غيره في المترادفات . ثم نقل إلى
المدرسة السنية الخاصة بتعليم البنات فبقي بها سنتين ألف فيها رسالته « محاسن
الأعمال » ولما عرضت على المجلس العالي بنظارة المعارف استحسنها أعضاؤه
جداً وقالوا : الأولى أن تكون بيد الملمات لا بيد المتعلمات .

ثم أخذت قوته في الوهن ، وبصره في الضعف ، لكبر السن . فعرض
استقالته على النظارة ، مبيناً السبب ، فأحيل على الكشف الطبي ، ثم أحيل
على المعاش .

وله من التأليف غير ما تقدم ، رسالة في الصرف اسمها : « قرة الطرف »
أوسع من المقدمة ، وأخرى في النحو وهي : « منحة الوهاب في قواعد
الإعراب » وهي نظم . ومن شعره :

الحمد لله لا فقر يضر ولا غنى يفرّ فلاحزن ولا فرح

وليس لى مطمع فى الناس يلجئى
للدنم والمدح إن ضنوا وإن سمحوا
وأسال الله حاجاتى فىمنحنى
من فضله فوق ما أهوى وأقترح
وله :

قد يسر الله أسباب المعاش لنا
بالعقل ، والرزق موقوف على القسم
ليعلم العبد أن الله يرزق من
يشاء بالفضل ، لا بالسعى والمهم
فيطلب الرزق بالأسباب معتمداً
على الذى أوجد الأشياء من عدم
ولا يخاف ولا يرجو سواه ولا
يحيد عن منهج الأحكام والحكم

وكان رحمه الله طيب الخلق ، حسن المعاشرة ، اعتكف فى داره بعد
فصله من المدارس وعكف على الاشتغال بالعبادة ومذاكرة العلم مع من يسر معهم
من إخوانه وأخلائه أو استقلالاً بنفسه . وكان فى مبتدأ أمره مولماً بالسماع
وتشبت بتعلم الموسيقى ، فلازم الشيخ محمد شهاب الدين الشاعر المشهور ، وكان

متقناً لها ، فأخذها عنه وأتقنها . ولكثرة مطالعته لكتب الأدب صارت
له ملكة أدبية ومعرفة بجيد الشعر وتقده .

ثم ما زال على هذه الحالة المحمودة حتى أُرهِقَهُ الكبر ، وضعف عن
المشي ، فلزم داره ، لا يخرج إلا لصلاة الجمعة في أقرب مسجد إليه ، ومع ذلك
فلا يبلغه إلا بمشقة زائدة . وتوفاه الله إلى رحمته في يوم الثلاثاء ٢١ رمضان
سنة ١٣٢٧ هـ .

أَحْمَدُ الرَّفَاعِيُّ^(١)

١٢٥٠ هـ — ١٣٢٥ هـ

اشتغل الشيخ أحمد الرفاعي بالحضور في الأزهر على مشايخ وقته، حتى تاهل للتدريس، فدرس الكتب المتداولة، وقرأ عليه كثيرون من كبار علمائه -- كالشيخ محمد عبده والشيخ محمد بنحيث، والشيخ محمد أبو الفضل الجيزاوى، والشيخ محمد حسنين العدوى، والشيخ محمد النجدى الشرقاوى، وغيرهم. وقد أصبح في أواخر أيامه وليس في الأزهر إلا من هم من تلاميذه أو في طبقته، إلا الشيخ عبد الرحمن الشربيني والشيخ سليم البشرى.

وكان من عادته ألا يقطع الإقراء طول السنة، ولا يساح في أوقات المسامحات، ولا يقعه عن الاشتغال بالتدريس إلا المرض، فقرأ الكتب المتداولة مراراً، ومهر فيها بسبب كثرة اشتغاله، حتى صار المستعصى منها عنده بمنزلة السهل عند غيره. وأتقن فن التجويد فجعل شيخاً على المقارى مدة طويلة.

ولما أقبل الشيخ حسونة النواوى شيخاً على الأزهر في المرة الأولى، ولم يجد له إقبالا من علمائه، صاحبه المترجم وتجنب إليه، ولازمه في غدواته

(١) مکتوب فی الهامش بخط المؤلف : وله ترجمة في « البواقيت الثمينة »

وروحاته . ثم لما انحرف الخديو السابق عباس بن توفيق عن الإمام الشيخ محمد عبده مفتى مصر والعضو بمجلس إدارة الأزهر ، وأراد كف يده عنه ، ساعده المترجم على ذلك وأخذ في معاكسة الشيخ وتدير المسكايد له ، وتنفير الأزهرين منه ، وتقرب من الخديو ، وأكثر من التردد على قصر القبة ومداخلة الحاشية ، حتى حظى عنده ، وأقبل عليه إقبالا عظيماً ، فلما عزل الخديو الشيخ سليم البشري عن الأزهر في ٢ ذى الحجة سنة ١٣٢٠ هـ وأراد إرجاع الشيخ حسونه النواوى أو تنصيب الشيخ محمد بخيت ولم يرض النظر ، رشح المترجم واستدعاه وأعلمه بانتخابه له ، فعاد إلى داره جذلاً وأشاع الأمر ، وهياً السكر لشرب المهنتين ، والرمل الأصفر لفرشه بصحن الدار ، وكاد الأمر يتم له لولا أن بعض مبغضيه من المقربين للخديو صرفه عن توليته ، وذكر عنه هنات ، الله أعلم بها ، فعدل الخديو عن تنصيبه ، والتمس لنفسه مخرجاً من وعده الذى وعده به ، فأعمل بعض المقربين الحيلة ، واستدعوه بحضرة الخديو وسألوه عن قبوله التولية ، فقال لهم :

نعم ولانى مولاي الخديو وقبلت .

فأخذوا يذكرون صعوبة مراس أهل الأزهر ، والمشاق التى يعانها شيخهم لإخضاعهم ، ولحوا له أنهم لا يظنونهم يقوى عليهم . فقال : ومن أهل الأزهر ؟ أنا أدوسهم بقدمى .

فقالوا : إنك ستكون مع الشيخ محمد عبده والشيخ عبد الكريم سلمان

المضوين بمجلس الإدارة ، فهل ترضى بأن يشاركك في الإدارة ؟ وكيف يكون شأنك معها ؟

فقال : كلا ، لا أرضى أن يشاركنى ، بل أشرت لقبول التولية عزلها ، وهما عندى كافران لا يوثق بهما !

فاستغرق الخديو فى الضحك وقال : شرطك لا يمكن تنفيذه ، ونحن نريحك من رئاسة الأزهر ، ونموضك عنها بشيء نجريه عليك من الأوقاف . فأسقط فى يده ، ورضى مرغما . ثم صرفوه .

ثم وقعت منه فى أواخر أيامه زلة . قيل إنه تصرف فى وقف بغير وجه شرهى ، ولكن الله لطف به ، فلم يقع له بسبب ذلك غير فصله من المقارئ ، وكثرت غومومه وهمومه لما لا كنهه الألسنة فى هذه المسألة ، فانتقطع عن التدريس لمرض أصابه ، إلى أن توفى بعد ظهر يوم الاثنين ١٨ صفر سنة ١٣٢٥ هـ ودفن يوم الثلاثاء ، وأذنوا له على المآذن كالعادة فى موت كبار العلماء ، وقد بلغ من السن نحو خمس وسبعين سنة . وكان قصيراً دحداً خفيف الحركة ، رحمه الله وتجاوز عنه .

وله من المؤلفات : حاشيته على شرح لامية الأفعال لابن مالك ، طبعت

بمصر .

على محمد الببلاوى

١٢٥١ هـ - ١٣٢٣ هـ

هو السيد على بن محمد بن أحمد المالكي الحسنى الإدريسي ، من قرية ببلاو ، التابعة لعمل ديروط الشريف من أعمال مديرية أسيوط ، ولد بها في شهر رجب سنة ١٢٥١ هـ ، ونشأ بها حفظ القرآن ومبادئ العلوم ، وحضر للأزهر سنة ١٢٦٩ هـ فقرأ به على شيوخ وقته كالشيخ محمد عlish ، والشيخ منصور كساب ، والسيد محمد الصاوى ، والشيخ على مرزوق ، والشيخ إبراهيم السنجلى ، والشيخ أحمد الإسماعيلى ، والشيخ محمد الإنبائى ، والشيخ على بن خليل الأسيوطى ، وكان له به نوع اختصاص فى الحضور ، وصحب مدة حضوره الشيخ حسونة النواوى ، فكانا يسكنان معاً ، ويحضران معاً الدروس إلا فى درس الفقه ، فإن المترجم كان مالكيّاً والشيخ حسونة النواوى حنفيّاً .

ولم يزل يجمع ويجهّد حتى تأهل للتدريس ، فدرس بالأزهر والمسجد الحسنى الكتب المتداولة ، وفى سنة ١٢٨٠ هـ سافر للحجاز فحج . ثم استخدم بدار الكتب بالقاهرة مغيراً ، حتى كانت الثورة العربية ، وانجبت الأنظار لتنصيب المصريين فى المناصب الكبيرة ، فساعده صديقه ومريده محمود سامى باشا البارودى على إقامته ناظراً على هذه الدار سنة ١٢٩٩ هـ فتمت له نظارتها بعد ما سعى كثيرون لها فلم يوفقوا .

ثم لما هدأت الأمور ، وانتهت الثورة ، كان المترجم يتوقع القبض عليه كما فعل بكثيرين ، للعلم بأنه من صنائع البارودى ، ولكن الخديو السابق توفيق رأى الاكتفاء بفصله من دار الكتب وتعيينه خطيباً فى المسجد الحسينى ، ثم جعل شيخاً لخدمة هذا المسجد فى ثانى صفر سنة ١٣١١ هـ

ولما غضب الخديو على السيد محمد توفيق البكرى نقيب الأشراف وشيخ الطوائف الصوفية وأمره بالاستقالة من النقابة فاستقال ، سعى للمترجم صديقه ورفيقه فى الحضور الشيخ حسونة النواوى وكان إذ ذاك رئيساً لمجلس إدارة الأزهر قبيل إقامته شيخاً عليه ، فأمر الخديو بتعيين المترجم نقيباً للأشراف فى ٦ شوال سنة ١٣١٢ . فاعتنى بضبط مدخولها وجدد من أوقافها ست دور بناها بجهة الحلمية ، وصار يصرف الاستحقاقات فى أوقاتها ، وسئل فى رئاسة الخدمة بالمسجد الحسينى ، فقال : إن كانت النقابة تمنعنى من خدمة سيدنا الحسين لا أقبلها . فأبقى كما كان .

وأقام المترجم فى النقابة نحو ثمانى سنوات يحدد معاملها ، ويحجى ما درس منها ، حتى نقل منها شيخاً للأزهر . وكان سبب ذلك أن الخديو انحرف عن شيخ الأزهر الشيخ سليم البشرى ، وانتهى الأمر باستقالته يوم الأحد ٢ ذى الحجة سنة ١٣٢٠ هـ . وأراد الخديو إعادة الشيخ حسونة النواوى أو تنصيب الشيخ محمد بخيت المطيعى فلم يوافق النظار على ذلك ، فرشح الشيخ أحمد الرفاعى المالكي وأعلمه بذلك ، وكادت تتم له لولا عوارض اعترضت ، ثم سعى الشيخ على يوسف صاحب صحيفة المؤيد ومن أكبر المقربين من

الخديو للشيخ المهدي ابن العلامة محمد المهدي العباسي ، فرد عليه بأنه لا يصلح
لحموله وعدم توليته أموراً قبل الآن . فأجاب بأنه وإن كان كذلك فهو من
بيت علم وغنى ، تربى في نعمة فلا تطمح نفسه لشيء مما في الأيدي ، وتدربه
على الأمور قريب مدرك . فرضى الخديو به ، ولكن النظار لم يوافقوه عليه
الأمور فقمها عليه ناظر الحقانية مدة ما أقامه عضواً بالمجلس الحسيني ، فحار
الخديو وحنق ، وطلب دفتر أسماء العلماء فوقع نظره على اسم المترجم فارتضاه
وجنح إلى توليته ، ولم يكن خطر على بال أحد ، وساعد الشيخ على يوسف
على ذلك ليتسكن من رد السيد محمد توفيق البكري إلى النقابة ، فقم له الأمر
ورضى به النظار ، وأعيد البكري إلى النقابة مضافة إلى ما بيده من رئاسة
الطرق الصوفية ، وصدر الأمر في ٢ ذي الحجة بإقالة الشيخ سليم من الأزهر
وتنصيب المترجم — فلما ذهب لشكر الخديو كالمادة استصحب معه ولده
الأصغر السيد محمود ، والتمس إقامته شيخاً على المسجد الحسيني بدله كما أقيم
أخوه الأكبر السيد محمد قبله خطيباً له ، فقبل ملتصقه ، وأجبت رغبته .

وكان الخديو في ذلك الحين منحرفاً عن الشيخ محمد عبده مفتي مصر
والعضو بمجلس إدارة الأزهر وصاحب الكلمة العليا فيه ، فكان يظن أن
المترجم يوافقه في مما كسة الشيخ ومعارضته وعرقلة مساعيه ، فأخطأ ظنه ،
لأن المترجم مال للشيخ كل الميل ، ووافقه في كل مشروع ، واتحد به واندرج
فيه ، حتى لم يكن له من الرئاسة غير رسومها ، والكلمة كلمة المفتي .

ولما سئل في ذلك ، اعتذر بأن الرجل لا يريد غير الإصلاح ، فلا يرى وجهاً

لمعارضته . فكان ذلك سبباً لميل الخديو عنه — بعد إقباله عليه .

ولما اعتزم الإمام محمد عبده نفق يده من الأزهر ، رأى المترجم أن الأمور لا تجري على مرغوبه ، فاستقال من الأزهر يوم الثلاثاء ٩ المحرم سنة ١٣٢٣ هـ فأقبل يوم السبت ١٢ منه ، وأقيم بدله الشيخ عبد الرحمن الشربيني الشافعي ، واستقال أيضاً المفتي من مجلس الإدارة مرغماً .

وأقام المترجم بعد ذلك بداره التي بجهة المنصورة ، بعد أن رتب له الخديو خمسة وعشرين ديناراً معرياً من الأوقاف الخيرية تعرف له كل شهر ، وظل مواظباً على تلاوة القرآن كمعادته ، مقبلاً على العبادة ، حتى ازداد به المرض سنة ١٣٢٣ هـ ، وتوفاه الله في غروب يوم الجمعة الثالث من ذي القعدة من تلك السنة ، فشيعت جنازته بعد عصر يوم السبت ، وصلى عليه بالمسجد الحسيني وطيف به حول المقام كوصيته ، ثم دفن بقرافة المجاورين في بستان العلماء . رحمه الله رحمة واسعة .

وله من المؤلفات رسالة اسمها : « الأنوار الحسينية » ، على رسالة المسلسل الأميرية « ورسالة فيما يتعلق بليلة النصف من شعبان ، لولده السيد محمود تعليق عليها سماه : « عروس العرفان » ، في الحث على ترك البدع وشوائب النقصان ، على الرسالة الببلاوية المتعلقة بليلة النصف من شعبان » .

حِسُونَةُ النَّوَاوِي

١٢٥٥ هـ — ١٣٤٣ هـ

ولد الشيخ حسونة بن عبد الله النواوي سنة ١٢٥٥ هـ ، في قرية «نواي» التابعة لملاوي من أعمال أسيوط ، ولما ترعرع حضر إلى الأزهر ، وتلقى به العلم على شيوخ وقته . وكان حضوره الفقه الحنفي على الشيخ عبد الرحمن البحراوي ، والمعتول على الشيخ محمد الإنبائي ، والشيخ علي بن خليل الأسيوطي .

ثم تولى التدريس في الأزهر ، وأحيل عليه تدريس الفقه بدار العلوم ومدرسة الإدارة التي سميت بعد ذلك بمدرسة الحقوق^(١) ، مع درس آخر بمسجد محمد علي بالقلعة . فكان له من مجموع وظائف هذه الدروس ما حسن به حاله .

وألف في أثناء ذلك كتابه : « سلم المسترشدين » في الفقه الحنفي لتلاميذ مدرسة الإدارة . وقد سطع نجمه وتألّق ، وأصبح علماً خفّافاً يهتدى به الحائرّون .

وحينما بدأ إصلاح نظام الأزهر وإدخال بعض العلوم الحديثة فيه كالرياضيات وتقويم البلدان والتاريخ وغيرهم ، بسى الإمام الشيخ محمد عبده ،

(١) كلية الحقوق الآن .

ثم تأليف مجلس لإدارته ، مع إبقاء الشيخ محمد الإنبائي شيخاً له ، واختير الشيخ حسونة رئيساً لهذا المجلس ، بعد أن رشحه لذلك بعض كبار رجال الحكومة ممن سبق لهم التلقى عليه بمدرسة الإدارة . فأخذ في إدارة أمور الأزهر حتى انحصرت فيه كلياتها وجزئياتها . ولم يصبر الشيخ محمد الإنبائي على ذلك ، واعملت صحته ، فاستقال في ٢٥ ذى الحجة سنة ١٣١٢ هـ وأقبل في ثاني المحرم ١٣١٣ هـ .

وكانت تولية الشيخ حسونة مكانه ضد رغبة العلماء الأزهريين ، إذ كانوا يرون أن فيهم من هم أكبر سنّاً ، وأكثر علماً ، وأحق بالرياسة عليهم منه ، ولأنه جاء مؤيداً لتدريس الحساب والهندسة والجبر وتقويم البلدان وما إليها في الأزهر ، وكانوا ينفرون منها بدعوى أنها علوم مستحدثة ، وما هي إلا علوم قديمة اشتغل بها المسلمون وألفوا فيها . وكانت تدرس بالأزهر قبل انحطاطه . وإنما نفروا منها لبعد عهدهم بها ، ولظنهم أنها من علوم الأفرنج ، وأنها ما أدخلت في الأزهر إلا للقضاء على العلوم الشرعية أو تقليل الرغبة فيها .

كذلك كان من أسباب ضيق الأزهريين بتولية الشيخ حسونة شيخاً للأزهر ، أنه تولى خلفاً للشيخ الإنبائي المشهود له بالعلم والفضل والتقوى بين الخاصة والعامة . وقد أشاع بعض الحاقدين أن الشيخ حسونة مطبوع على الشدة والجفاء في مخاطبة الناس ومعاملتهم ، وأنه بعد التولية داخله شيء من الزهو والخيلاء ، كما أشاعوا أنه ممالئ للإنجليز على هدم مكانة الأزهر بإدخال العلوم الجديدة فيه .

وفي عهد توليته على الأزهر ، وقعت حادثة الوباء التي امتنع فيها الطلبة بإغراء بعض منهوريهم عن الإذعان لأوامر الحكومة ، واعتصموا بالأزهر ، وقاموا رجال الشرطة ورموم بالأحجار ، حتى أصيب محمد ماهر (باشا) محافظ القاهرة بجرح أدمى وجهه ، فأحيط بهم ، ورموا بالرصاص ، فخرج بعضهم ، ثم قبض على زعمائهم ، وحكم على بعضهم بالسجن ، وعلى البعض الآخر بالنفي ، وأغلق رواق الشوام لأن حركة التمرد بدأت منه .

وانتهز هذه الفرصة أعداء الشيخ النواوى وانتصروا للطلبة ، وأخذوا يرمون الشيخ بالضعف والتهاون عن الدفاع عن حرمة المسجد والمحامة عن أهله ، فرد الله كيدهم في نحورهم .

ولما توفى الشيخ محمد المهدي العباسي سنة ١٣١٥ هـ ، أضيف منصب الإفتاء الذي كان يشغله إلى الشيخ النواوى بجانب رئاسة الأزهر .

واستمر الشيخ النواوى جامعاً للنصبين ، حتى وقع الخلاف الكبير أواخر سنة ١٣١٦ هـ بشأن إصلاح المحاكم الشرعية ، وعرض على مجلس شورى القوانين اقتراح بنصب قاضيين من مستشارى محكمة الاستئناف الأهلية ليشاركا قضاة المحكمة الشرعية العليا فى الحكم ، فوقف الشيخ حسونة ضد ذلك الاقتراح ، وجرت مناقشة بين الشيخ ورئيس النظار مصطفى فهمى (باشا) انتهت بأن غادر الشيخ المجلس مغضباً محتجاً .

وأكبر الناس موقف الشيخ ، ولا سيما بعد أن سرى إلى الأذهان أن

الحكومة تريد هدم الشريعة بذلك المشروع ، ولكن النظار أحفظهم ما واجه به الشيخ رئيسهم ، وحرك ذلك ما كان في صدورهم منه يوم أرادوا منع الحج احتجاجاً بالوباء ، واستفتوه ليجملوا فتواه عصاً يتوكأون عليها كلما أرادوا منع الحج ، وظنوا أنه يوافقهم ، ولكنه أخلف ظهم ، وأقى بدمم جواز المنع ، فلما كانت حادثته مع رئيس النظار ، شكوه إلى الخديو وطلبوا عزله .

وحاول الخديو حل الشيخ على قبول الاقتراح بحد تعديله وتغيير ما يراه مخالفاً للشرع منه ، فأصر على الامتناع وقال : « إن المحكة الشرعية العليا قائمة مقام الفتى في أكثر أحكامها ، ومهما يكن من التغيير في الاقتراح فإنه لا يخرج عن مخالفته للشرع — لأن شرط تولية الفتى مفقود في قضاة الاستئناف » .

وتألم الخديو من الشدة في كلام الشيخ ، قال لرأى نظره فيه ، ثم أصدر أمره يوم السبت ٢٤ المحرم سنة ١٣١٧ هـ بعزل الشيخ عن رئاسة الأزهر والإفتاء . وإقامة ابن عمه الشيخ عبد الرحمن القطب النواوى شيخاً على الأزهر ، والشيخ محمد عبده المستشار بالاستئناف الأهل مفتحاً .

ولما أذيع الأمر كثرت وفود العلماء والوجهاء على دار المترجم . وانطلقت الألسنة بمدحه والثناء عليه ، وتملقت به القلوب ، وأقبل الناس عليه أى إقبال . وتحققوا بطلان ما اتهمه به خصومه .

والحقيقة أن الشيخ لم يعهد عليه ما يشين دينه ولا دنياه . بل عرف بالعفة وعلو الهمة وتقواه اليد . ولولا جفاء كان يبدو بعض الأحيان في منطقته ، وشدة فيه براها بعض الناس غلظة ، ويمدها البعض شهامة ، لحفظ ناموس العلم ، خصوصاً مع الكبراء الذين أفسدتم تعلق علماء السوء ، وحملهم على الاستهانة بهذه الطائفة .

ولم يزل المترجم معتكفاً في داره ، مقبلاً على شأنه ، حتى انتقل إلى دار ابتناها بجهة القبة . ولم يقم ابن عمه في الأزهر طويلاً ، بل توفي فجأة بعد نحو شهر من ولايته سنة ١٣١٧ هـ . فولى على الأزهر الشيخ سليم مطر البشري المالكي ، ثم استقال فأقيل يوم الأحد ٢ ذى الحجة سنة ١٣٢٠ هـ . وأراد الخديو إعادة المترجم أو تولية الشيخ محمد بخيت ، فلم يوافق النظار ، ثم تولى على الأزهر الشيخ علي بن محمد البيلادي المالكي نقيب الأشراف ، واستقال يوم الثلاثاء ٩ المحرم سنة ١٣٢٣ هـ ، فأقيل يوم السبت ١٢ منه . وفي اليوم التالي عين الشيخ عبد الرحمن الشربيني الشافعي شيخاً للأزهر ، ثم استقال فأقيل يوم الأربعاء ١٦ ذى الحجة سنة ١٣٢٤ هـ ورتب له ١٥ ديناراً مصرياً في الشهر من الأوقاف الخيرية ليكمل مرتبه ٢٥ ديناراً . وفي اليوم نفسه أعيد الشيخ حسونة النواوي شيخاً على الأزهر ، ولكنه لم يمكث في المنصب طويلاً ، بسبب اختلال الأحوال في الأزهر ، فاستقال سنة ١٣٢٧ هـ . وأعيد إلى الأزهر الشيخ سليم البشري ، ولزم المترجم داره بالقبة بزوره محبوه وبزورهم حتى آخر حياته . وكان خلال توليته الأولى قد عين عضواً دائماً

غير قابل للعزل بمجلس شورى القوانين ، ولهذا بقي في المجلس بعد عزله من الأزهر والإفتاء ، حتى ألقى المجلس واستعفى عنه بالجمعية التشريعية سنة ١٣٣٢ هـ

وقد أصيب الشيخ في أواخر أيامه بأمراض ووهن في القوى وضعف في النظر ، وانتقل إلى راحة مولاه صباح يوم الأحد ٢٤ من شوال سنة ١٣٤٣ هـ ودفن بقرافة المجاورين .

عبد الله بن عبد الحميد

١٢٦١ هـ - ١٣١٤ هـ

هو : عبد الله نديم أفندي بن مصباح بن إبراهيم ، الأديب الأملئ ، والخطيب المفوّه ، نادرة عصره ، وأعجوبة دهره .

ولد أبوه ببلدة « الطيبة » بالشرقية في شهر ذى الحجة سنة ١٢٢٤ هـ ثم انتقل إلى ثغر الإسكندرية ، فكان في مبتدأ أمره نجاراً للسفن بدار الصناعة ، ثم اتخذ له مخيزاً لصنع الخبز ، ومات بالقاهرة في ٤ رجب سنة ١٣١٠ هـ .

وولد المترجم بالثغر المذكور في عاشر ذى الحجة سنة ١٢٦١ هـ ونشأ في قلة من العيش ، ومالت نفسه إلى الأدب فاشتغل به واسترشد من أهله ، وطالع كتبه ، وحضر دروس الشيوخ بمسجد الشيخ إبراهيم . وكان قليل الاعتناء بالطلب ، غير مواظب على الدرس ، إلا أن الله وهبه ملكة عجيبة وذكاء مفرطاً ، فبرع في الفنون الأدبية ، وكتب وترسل ونظم الشعر والزجل ، وطرح الإخزان ، وناظر الأقران . ثم بدا له أن يتعلم صناعة للكسب ، فتعلم فن الإشارات البرقية ، واستخدم في مكتب البرق بينها العمل ، ثم نقل إلى مكتب القصر العالي بالقاهرة ، وبقي به مدة عرف فيها كثيراً من أدباء القاهرة وشعرائها ، مثل : محمود سامي البارودي ، ومحمود صفوت الساعاتي ، والشيخ أحمد رهي . ثم غضب عليه « خليل أغا » أغا القصر ، وكان في سيطرة لم يبلغها

كافور الأخشيدي ، فأمر بضربه وفصله ، فضاقت به الحيل ، ورتت حاله ، حتى توصل إلى الشيخ أبي سعدة عمدة « بداوى » في الدقهلية ، وأقام عنده يقرى أولاده ، ثم تشاحنا واقترعا على بغضاء . واتصل بالسيد محمود الفرقاوى ، أحد أعيان التجار بالمنصورة ، فأحسن منزله ، وفتح له حانوتا لبيع المناديل وما أشبهها . فكانت نهاية أمره أن يدد المكسب ورأس المال ، وجعل يحب البلاد وافداً على أكابرها ، فيكرومون وفادته ويهشون لقدمه ، لما رزق من طلاقة اللسان ، وخفة الروح ، وسرعة الخاطر فى النظم والنثر ، فيطوف مايطوف ، ثم يآوى إلى دار الفرقاوى بالمنصورة .

ثم عاد إلى طنطا سنة ١٢٩٣ هـ واتصل بشاهين (باشا) كنج مفتش الوجه البحرى إذ ذاك . ولاتصاله به سبب لأأس من ذكره ، وهو : أن الباشا المذكور كان بينه وبين الشيخ محمد الجندى أحد العلماء بالمسجد الأحمدي صحبة وتزاور . وكان الشيخ يعرف غلاما حلاقا حسن الصوت ، فأمره مرة أن يغنى بحضرة الباشا ، فغنى بقول المترجم :

سلوه عن الأرواح فى ملاعبه	وكفوا إذا سل المهند حاجبه
وعودوا إذا نامت أراقم شعره	وولوا إذا دبت إليكم عقاربـه
ولا تذكروا الأشباح بالله عنده	فلو أتلغ الأرواح من ذا يطالبه؟
أراه بعينى والدموع تكاتبه	ويحجب عني والفؤاد يراقبه

إلى أن قال :

ولو أن طرفي أرسل الدمع مرة سفيراً لقلبي ما توالى كتابته
 وكان كثيراً ما يتغنى بها، فطرب الباشا طرباً شديداً، واستظرف قائل
 الأبيات، وتمنى رؤيته، فأرسلوا له بالحضور، فلما حضر إلى طنطا (١) ذواجه،
 استقبل صورته، إلا أنه أعجبه ظرفه وأدبه، ومال إليه، فأنخذه نديماً
 لا يمل، ورفيقاً حيث حل. فلما استقرت به النوى وملاً يده من الباشا،
 استمدها على أبي سمعة الذي كان يقرء أطفاله، وادعى أنه أخرله ثلاثين
 ديناراً من أجرة التعليم، فأمر الباشا بإشخاصه إلى طنطا. وألزمه أن يدفع
 للمترجم مائة. فدفعها عن يد وهو صاغر.

وكان مجلس شاهين باشا محط رجال الأدباء، ومنتجع الشعراء والندماء،
 لا يخلو من مطارحات أدبية، ومساجلات شعرية، وللمترجم بينهم المقام الأعلى،
 والقدح المملى. وحسبك ما وقع له من طائفة (الأدبائية)، وهم مشهورون
 بالقطر المصري - يستجدون الناس في الطرق بإنشاد الأزجال والضرب على
 الطبل، وأغلب أزجالهم مرتجلة في مقتضى الحال. فكان للمترجم معهم يوم
 مشهود، ذكره في مجلة الأستاذ، ومنها نقلناه. قال:

« اتفق لي أنى كنت بمولد سيدى أحمد البدوى رضى الله عنه سنة
 ١٢٩٤ هجرية، وكان معى السيد على أبو النصر، والشيخ رمضان حلاوة،

(١) هو الاسم الأصيل لمدينة « طنطا »

والسيد محمد قاسم ، والشيخ أحمد أبو الفرج الدمهورى . فجلسنا على قهوة الصباغ نتفرج على أديب^(١) وقف يناظر آخر . فلما فطن أحدهما لانتقادنا عليهما لفت أخاه إلينا وخصانا بالكلام ، فأخذنا يمدحنا واحداً فواحداً ، إلى أن جاء دورهما إلى ، فقال أحدهما مخاطبى :

انعم بقرشك يا جندى والا اكنا امال يا أفندى
إلا انا وحياتك عندى بقى لى شهرين طول جوعان
فقلت على سبيل المزح معه :

أما الفلوس أنا مديشى وانت تقول لى مامشى
يطلع على حشى أقوم أملص لك لودان
ثم أخذنا تبادل الكلام نحو ساعة ، حتى غلبا عندما فرغ محفوظهما ، فلما قفنا وتوجهنا إلى منزل المرحوم شاهين باشا ، وكنا نازلين عنده جميعاً ، أخبره السيد على أبو النصر بما كان منى مع الأديبين ، فلما أصبحنا استدعى شاهين باشا شيخ الأدبائه وطلب منه أن يستحضر أمهر من عنده ، ووعدده أن يعطيهم ألف قرش إن غلبوني ، فان غلبتهم ضرب كل واحد منهم عشرين كراباجاً . فرضى بذلك . واستحضر الشيخ داود ، والحاج إسماعيل ، الشهرين بعمل الزجل وإنشاده ارتجالاً فى أى غرض ، واستحضر معها ستة من أشهر الحفظة المقتدرين على الارتجال أيضاً ، وعقد الباشا لذلك مجلساً أمام بيته

(١) يقصد أنه واحد من طائفة « الأدبائية »

بطنطا ، وأجلسني بينه وبين المرحوم جعفر (باشا) مظهر . وقد وقف الناس
ألوفاً ، والمساكر تدفعهم عنا ، ثم ابتدأ الشيخ فقال :

أول كلامي حمد الله ثم الصلاة على الهادي
ماذا تريد يا عبد الله قدام أميرنا وأسيادي
فقلت :

أنا أريد أحمد ربي بعد الصلاة على المختار
وان كنت تطعم في أدبي أسمك حسن الأشعار
فقال :

دعنا من الأدب المشهور وادخل بنا باب الدهكة
ندخل على أسيادنا بسرور ونغتم الخير والبركة
فقلت :

هيا احتكم في البحر وشوف فن النديم ولا فنك
دلوقت تسمع يا متحوف أحسن أدب وحياة دقنك
فقال : هات مدح في الحضرة على قد :

تعمل عمائك يامنصان يا أبو الشفيقه العليله
ياصاحب الحجل الزنان ودي الأمور الحيليه

ماذا تريد من دى الوهـان قل لي واسـف
أحسن أنا من خمر الحان قصـدى أرشف
وإن كنت نسمح يا أبو الخير يبقى الوصال (الدوا) ليه
فقلت :

المجلس العالى محمود فيه الأماره والأعيان
واليوم دايوم بابن مشهود خلعت عليه حلة إحسان
شاهين باشا فيه موجود حفظه أزهر—
أما المدير هذا المسود جعفر مظـم—
فانه فى الذ—اس ممدود من ضمن أبواب العرفان
فقال :

القصد منك يا نديمنا تعمل زجل هيله بيـله
إلا انت دلوقت غريمنا قصدى احـدك بالقليله
فقلت :

انت صغار لسه نونو وفى الزجل منش مجـدع
اتبـع نديم تلقى فنونو تأتـيك من المعنى الأبدع
وبعد أن دار الكلام بينى وبينه فى كثير من هذا الوزن ، قام الشيخ
داود وقال :

قصدى اقول كلام — يحكى لضمات الزهور — هات اشجنا بنظام
من فن « كان وكان »

ادخل بنا لمعان — كالبكر من خلف الستور — في قلب منحل
في النظم بالإتقان

فقلت :

اسمع كلام نديم — من طيه كل السرور — واعقل نصيحة خبير
بدعوك للعرفان

لا تستخف بخصم — لو كان من أوهى الطيور — واصفح فكل صفوح
يعلو على الأعيان

واخش اللثيم دواما — فاللؤم داع للشرور — واحفظ مودة حر
في عهده ماخاب

هذي نصيحة حر — إن قلت زانت للنحور — والفكر فكر ذكي
لا يعرف النسيان

فأعرض عن « كان وكان » عجزاً منه . وقال : هات فخرا على قد :

يا صبا نجد ورامه	هجت للمشتاق وجدا
كل صب في غرامه	ما اشتكى في الليل سهدا
والهوى أحرق ضرامه	كل أحشائي وقلبي

فقلت :

فخر مثلى في بيانه والغبى يفخر بماله

والأدب أحسن صفاتي فالذكي حسنه كماله
كل قول المرء يفنى غير محمود المآثر

(دور)

قد كان لى سعد السعود خدام لما التقينا فى الطريق
وقلت بالحاجب أروح قدام وانت ورايا يا صديق
فصرت أنظر للقوام بالقام وعادل القـد الرشيق
حتى ملكت الروح وارواحها لو يرجع اليوم ينظر

(دور)

قال المدلع عاشقى : ما الحال ؟ جفنى جرح منك الفؤاد
كم من شحى مثلك سباه الحال حتى غـدا خصم الرقاد
قلت ارحموا من فى التصابى مال عن كل أبواب الرشاد
قال إن ترم منى الوصال وصفاء هات اليمين الأكبر
ثم طلبت منه أن يأتى باليمين من هذا الوزن ، فوقف ، فقصدت الحاج
إسماعيل ، فوقف . فطلبت من الستة ، فوقفوا ، فقال المرحوم شاهين باشا :
نحسبها لك واحدة .

ثم قال الشيخ : هات غزلا بمعنى بديع على قد :

أهيف رشتنى بقوام — مثل المران — والوجد عذبنى بناره

فقلت له : أقول تحميلة ، وتقولون أخرى من جنسها . فقال : هات .
فقلت :

يا اهل الصبا به يا عاشق — سلوا المشتاق — فالمشوق ماله غير أهله
فوقف الجميع ، ولم يستطع واحد منهم الدخول معي في هذا المضيق . فقلت
ومشيت إلى آخر الأدوار الآتية :

أشكو إليكم أحزاني بل هجراني من أهيف صادني نبهه
أهيف بنظره في خده خدني عبده وجت سقامي تشهد له
وادمي نزلت تجري تنظر صدرى رأيت فؤادى بيرقص له
قالت لو اتلفت عيوني قال : سبيوني سيد الملاح يعرف شغله
ما يعرف العشق الأجلاف يا اهل الإنصاف ما للعندول يكتر عنده
عاقل رأى مجنون يشرب حتى يطرب فراح شعوره مع عقله
إلى أن قلت :

لمساراه سلب الألباب خاف الأسباب وراح يضعض في نعله
وصرت وحدي منهني أفضل أغنى للحب إن شخشيخ حجه
أرعى النجوم والنار تكوى قلبي المشوى والوجد كنتفى بحبه
قد بعث روى للفتان من غير أئمان وبعث ملكي من أجله
كيف الخلاص والقلب كسير والصب أسير والجفن يجرخني بنصله

ثم قلت :

يقول لى يامسكين مالك بين حالك عى يكون عندى حله
فقلت ياسيدى عبدك من نار خذك حرق اللهب جسمه كله
أخذت حبيب قلبى النخوه بعد التسرة وجهه يفاضانى بدله
خطر ولكن فى قلبى بهجة لى وجاد لمسكينو بوصله
من فرحى هرولت ابكى من غير ما اشكى والدمع من كترو بله
حركت قلبه للرحمة من دى الفحمة فجاد بيا سمينو وفله
فقلت : أحيت الفانى يا إنسانى الله يجازيك من فضله
وكل ما يرجو العاشق غير الفاسق والسر لا يحسن نقله

وإلى هنا صفق الباشا والحاضرون ، ثم عدنا للزجل المعتاد بما يطول
ذكره ، فإن الشيخ رمضان كذب من زجل هذا المجلس خمسة كواريس ،
وكله محفوظ عندنا لم يضع منه شيء وقد استمرت المناظرة ثلاث ساعات .



ولقد سألت بعض من حضر هذا المجلس عما كتبه المترجم ، فأذكره .
وأخبرنى أنه تعالى فيما كتب ، وذكر أنا سألم يكونوا حاضريه .
والله تعالى أعلم .

ثم اتصل المترجم بالتونجى (بك) فجمله وكيلا على ضياعه ، ثم لحق
بالإسكندرية مسقط رأسه ، ومنبت غرسه ، وكان منه ما سنقصه عليك .

تلك خلاصة ترجمته في أول أمره ، ومبتدأ خبره . وكان القطر المصرى في أثناء ذلك في اضطراب ، وهرج ومرج ، من اختلال الأحوال ، وفساد الحكم ، واعتلاء الإفرنج على الأهلىن ، وقد سُم الناس حكم الخديو إسماعيل وتمنوا زوال دولته . . .

فلما وفد المترجم على الثغر رأى لفيغاً من الشباب ألفوا جمعية « مصر الفتاة » يتآمرون فيها سرّاً ، خوفاً من بطش الخديو . فعرف منهم البعض ، واشتغل بالكتابة في صحف الأخبار ، فأعجب الكتاب بمقالاته ، واقتدوا به في تحسين الإنشاء ، وكان سقيماً منحطاً في ذلك العهد . ثم سعى مع جمع من الأدباء ، فألفوا جمعية سموها « الجمعية الخيرية الإسلامية » سنة ١٢٩٦ هـ . آخر سنى إسماعيل في الحكم ، وجعله مدير مدرستها . ثم عزل الخديو وتولى ابنه توفيق . ففرح الناس وظنوا انفراج الأزمة — وجد المترجم واجتهد في إنجاح مسعاه في الجمعية ، حتى حمل الخديو على زيارة مدرستها ، فزارها يوم امتحان تلاميذها ، وجعلها تحت رعاية ولى عهده عباس . وفتحت لهم أبواب المدرسة البحرية ليدرسوا بها ، وقررت الحكومة مائتين وخمسين ديناراً في السنة مساعدة لهم .

وظفق المترجم يؤلف القلوب ، ويحض الأهلىن على الاتحاد بالمقالات والخطب ، ينقشها قلمه ولسانه ، وألف قصة سماها : « الوطن وطالع التوفيق » وأخرى سماها : « العرب » شرح فيها ما كانت عليه حالة القطر وما طرأ عليه ، ثم مثلها هو وتلاميذه بأحد ملاعب الثغر بحضور الخديو ، فكان

لها تأثير كبير في النفوس ، واشتهر المترجم ، وعلا كعبه ، ولهج الناس بذكره .
ثم طرأ فساد على الجمعية نسبوه إليه فانفصل منها . وكان قد شرع في
إنشاء صحيفة سماها : « التنكيك والتبكيك » مزج فيها المزج بالجد . وظهر
أول عدد منها في ٨ رجب سنة ١٢٩٨ هـ ، وظهر في أثناء ذلك وميض الثورة
العراقية من خلل الرماد ، فوافقت هوى في نفس المترجم ، وضمه قاذنها إليهم ،
وشدوا أزرهم به ، فلا صحيفته بمحامد ، ودعا إلى القيام بناصرهم ، وخطب
الخطب المهيجة ، ونظم القصائد الحماسية ، وندب الوطن وراثه ، وحض على
الاجتماع والتسكاف ونبد أذاليل الأفرنج ، فآثرت قائله في النفوس ،
وأشربتها القلوب .

واقتب المترجم إلى الإمام الحسن السبط ، رضى الله عنه . وإن كان بعض
من عرفوه ينكرونها . ثم أوقف صحيفته بعد أن ظهر منها ثمانية عشر عدداً ،
آخرها تاريخه ٢٣ ذى القعدة سنة ١٢٩٨ هـ وكانت أسبوعية تظهر يوم الأحد ،
وانتقل إلى القاهرة وهي جنوة من نار ، وغير اسم صحيفته بأمر من عرابي كبير
الشوار ، فسمها : « الطائف » تيمناً باسم بلدة بالحجاز مشهورة ، وتفاؤلاً بأنها
تطوف المسكونة كما جابتها جوائب « أحمد فارس » . واسترسل المترجم مع
رجال الثورة حتى صار جُذَيْلًا المهكك ، وعُدَيْقًا المرجب ، ولقبوه بخطيب
الحزب الوطني ، وقام سراة القطر وأعيانه يعقدون المجتمعات ويولون الولائم
للعرابين ، ويدعون المترجم للخطابة ، وكانت له بها المواقف المشهودة ، والأيام
المعدودة ، حتى قامت الحرب بالإسكندرية بين الانكليز والمصريين يوم

الثلاثاء ٢٥ شعبان ١٢٩٩ هـ فسافر إليها مع جماعة من رؤساء الجند وبات بها ليلة ، ولحق بمرأى وقدرجع إلى كفر الدوار ، ثم انتقل معه إلى التل الكبير وهو ينشئ صحيفة « الطائف » بالمسكر ، فيضمنها أخبار الانتصار ، ويحشوها بما فيه تهديئة للأفكار ، حتى وقعت الواقعة الكبرى على المصريين بالتل الكبير ، فجاء مع عرابى وعلى الروبى إلى القاهرة يوم الأربعاء ٢٩ شوال من السنة المذكورة ، واتفقوا على إرساله إلى الإسكندرية بكتاب يطلبون به مطلباً من الخديو ، فسافر به يوم الخميس ، ولما وصل إلى كفر الدوار بلغه القبض على زعماء الثورة ودخول الإنجليز القاهرة . فعاد إليها ليلاً ، وبقي في داره بجهة السماوى إلى الصباح ، وخرج مع والده وخادمه فركبوا عجلة وقصدوا بها بولاق ، ورآه شاهين فؤاد المفتش بالمصرف العقاري وهو من ممالك القصر السابقين ، فظنه غير مطلوب ، ولولا ذلك لقبض عليه . وودعه أبوه عند وصوله إلى بولاق واختفى مع خادمه تسمية أعوام لا يهتدى لمكانه ، حتى أعيى الحكومة أمره ، فجملت ألف دينار لمن يرشد إليه ، وبثت عليه العميون فلم يظفروا بطائل . وأعيتهم الحيل ، فحكم عليه بالنفى من القطر المصرى مدة حياته ، ويثس أصحابه من وجوده ، وأشيع القبض عليه وخنقه أو موته حتف أنفه أو هربه إلى بلاد الإفرنج ، ولا غرو إذا عد اختفاؤه من الأمور الغريبة فأمره غريب من أوله — وكان حين ودع أباه ببولاق قصد دار صديق له يدعى الشيخ مصطفى فأقام بها أياماً ، ثم غير زيه فلبس ثوباً من الصوف الأحمر (زعبوطاً) واعتم بعمامة حمراء وسدل على عينيه منديلاً ، وأخفى شاربه ، وأغفى لحيته ، فتغيرت هيئته ،

ونزل مع خادمه فى سفينة قاصدة «بنها» ومنها إلى «منية الغرقى» بقرب طامخا ، وقصد الشيخ شحاته القهبى من مشايخ الطريقة الصاوية كان أخذ عليه العهد ، وكان مشهوراً بالصلاح والتقوى ، فلم يعرفه لتغير شكله . فجلس هنيهة حتى انعرف من فى المجلس ، فعرفه حاله ، وأقام عنده ثلاثاً ، ثم أشار عليه الشيخ بالانتقال . منتزحاً بكثرة الواردين ، فتنحول إلى دار أحد الدراويش الموثوق بهم ، فأواه شهراً ثم قصد بلدة أخرى ، وطوحت به الطوائف ولقى الأهوال .

وحدث أنه نزل مرة عند قوم فأخفوه فى قاعة مظلمة يتوصل إليها من سرداب طويل شديد الظلمة ، ترشح أرضها بالماء لانخفاضها وقربها من خليج مار بجانب تلك البلدة ، وكان لايمكن من الكتابة والمطالعة إلا على مصباح صغير من زيت الحجر وهو الغاز أو الجاز كثير الدخان ، فقاى الشدائد بهذا المكان تسعة أشهر . ولما خرج منه كاد لايبصر الطريق لما غشى عينيه . وكان كلما حل أو ارتحل يغير اسمه وحليته ، فتارة يبخر لحيته بالكبريت حتى تبيض ، ويخضبها بالحناء أخرى ، وغير اسم خادمه حسين فسماه صالحاً . وظنه الناس شيخاً من الصالحاء ، حتى اتى مرة ببض من يخشاه وحادثه فستره الله وشمله بعنايته حتى فارقه . ثم ألفت به يد الأقدار إلى بلدة «العتوة القبلية» فى الغربية ، فاختفى عند عمدتها الشيخ محمد الهمشرى فأكرم مثواه ، وأقام فى داره ثلاث سنوات ونيفا ، تزوج فيها وولدت له بنت وماتت ولم يشعر به أحد ، وزوج خادمه حسيناً بأخت زوجته . ثم مات فى أثناءها رب الدار ، وكان شهماً ذامروءة كبيرة ، وله امرأة مثله شهامة ومروءة ، فاستحضرت أكبر

أولادها، وأعلمته أن ضيفهم المختفى عندهم هو «عبد الله نديم» طريد الحكومة،
وسألته : هل يطعم في الجُمل ويسلمه ؟ أو يكون كتابيه في حفظ الجار وحماية
الذمار ؟ ! فاهتز الولد لقولها، وأبى إلا أن يقتدى بأبيه في الكرم . ولعمري
إن ما آتته تلك الأسرة من مكارم الأخلاق وهلو الهمة لما يندر مثله في
هذا الزمن .

وتنقل من بلدة إلى أخرى، وماتت زوجته ، فذهب إلى القرشية نزىلاً عند
أحمد (باشا) المنشاوى ، فكان يجتمع به صديقه القديم الأديب محمد أفندى
التميمي وغيره ، وتزوج هناك بنت مصطفى منى من أهل المحلة الكبرى ، إلا أنه
لم يحمد المقام ، فانتقل إلى دار التميمي في شهر ذى القعدة سنة ١٣٠٥ هـ فأقام بها
شهرآ ، ثم سافر إلى « الدلمون » في البحيرة فلم يكت بها غير أسبوع . وعاد إلى
الغربية ، وقصد « البسكاتوش » فكان يقيم تارة عند عمدهما الشيخ إبراهيم
حرفوش ، وينتقل تارة إلى دار جاره أحمد جوده ، وكان رجلاً قوياً الجنان ، لا يبالي
بظلام الليل أنى سار فيه . فصار يصحب المترجم إذا أراد الانتقال في الليل
الحالك ، وينجشم معه أضييق المسالك . وجعل المترجم إقامته بين « البكاتوش »
و « شباس الشهداء » ، ينزل فيها عند « محمد معبد » الحلاق ، فيبقى عنده
من الكرم والمروءة مالتيه إبراهيم بن المهدي عند ذلك الحلاق المشهور مدة
اختفائه من المأمون . ولم يزل كذلك حتى انتقل عند صديقه وصديقنا الأديب
السكامل الشاهر النائر محمد شكري المكي كاتب المركز بدسوق الذى أخبرني
قائلاً : بينما أنا بالمركز يوماً إذ دخل على الشيخ إبراهيم حرفوش عمدة البسكاتوش ،

فسلم وجلس ، ولحمت منه أنه يريد أن يسر إلى أمراً ، فترقب خلواً المكان ،
ثم أخبرني أن شخصاً عنده مشتاق إلى ، وهو صديق لي لم يرني منذ ثمانى سنوات
فاستخبرته عنه فانصرف ولم يخبرني به . ثم صار يتردد على بعد ذلك يذاكرني
في هذا الصديق ولا يبوح باسمه ، حتى وثق مني ، فأخبرني أنه مخنف واسمه
« عبد الله » . فقلت : لعله عبد الله نديم ؟ فقال : نعم . فكسبت له بيتين من
نظمي ، وسألته توصيلهما إليه ، وهما :

ولقد نذرت إذا لقيتك سالماً لأقبلن مواعيد الأقدام
ولأثنين على مجاباك التي حثت على التحرير والإقدام

فذهب بهما ، وعاد لي بعد يومين بقصيدة من نظم المترجم بخطه عدتها
مائة بيت من البحر والقافية ، يتشوق فيها إلى ويذكر ما لاقاه أيام الثورة
والاختفاء ، ويتمنى لو فرج الله عنه فيفعل كيت وكيت ، وكأنه نسي نفسه
وما هو فيه من الضيق . فكسبت له أبياتاً أطلب الاجتماع به . وبعد أسبوع
حضر لي إبراهيم حروفش ومعه ورقة بخط المترجم يطلبني فيها إليه يوم الجمعة
بشباس الشهداء ، فذهبت في الميعاد ، فوجدت محمد معبد الحلاق ينتظرني ،
فذهب بي إلى داره وهي دار صغيرة على تل ، وقد أنزلوا المترجم في مكان
عالٍ لا سلم له ، فصعدت إليه على سلم من الخشب رفعوه بعد صعودي ، فلما
التقينا ووقعت الدين على العين تعانقنا طويلاً ، وأدركتني دايه شفقة ، فقبلت
يده ، ثم جالسنا نتحدث في القديم والحديث ، وأطلقني على كتبه التي ألفها

مدة الاختفاء ، منها : بديعية له شرحها شرحاً لطيفاً لم يكمله ، وثلاثة دواوين من نظمه ، وجزء من « كان ويكون » ثم فارقت وقت المعمر .

* * *

وانتقل المترجم عند صديقه المذكور بزوجته وكتبه ، مدعيًا أنه : ابن عمه أتابه زائراً من الحجاز ، وسمى نفسه علياً البني ، فكث نحو ستة أشهر . ثم انتقل بمفرده إلى شباس الشهداء ، ولحقت به زوجته بعد عشرين يوماً . ثم أعادها بعد خمسة وعشرين يوماً إلى دار شكري (أفندي) بدسوق ، ولحقها فكث ستة أشهر أخرى ، ثم عاد إلى البسكاتوش عند أحمد جوده ، وكانت زوجته هذه تسمى إليه وتفاضبه ، فجذعت عليه مع ضيق الاختفاء سوء معاشرته الأهل ، حتى ضاق ذرعه منها مرة ، وهم بإظهار نفسه للحكومة ، ثم تراجع وأصلح أمره معها ، واسكتته مرة على فكه فكادت تسقط ثنيتيه من الفك الأدنى ، فربطهما بخيط من الحرير . وكان خادمه حينئذ مختفياً مع زوجته ببلادة الجيزة التابعة لمركز السنطة ، فطلبت زوجة المترجم الذهاب إليه فأذن لها ، فلما استقرت عنده تشاحت مع زوجته ، وكاد الأمر ينفضح ، فأسرع الخادم لسبيده بالبسكاتوش مستغيثاً ، فانتقل المترجم إلى الجيزة وأصلح بينهما ، وبقي هناك نحو شهرين فاستأنس وطاب له المقام ، وعرفه عمدة البلدة فتغاضى عنه ، وكنتم أمره ، فكان يخرج للتنزه على غير عادته في الاختفاء ، فيلتف عليه العمدة وبعض أناس من البلدة ، وهو يقرأ لهم ويعظمهم ويسامهم وهم مبتهجون به .

وكان يتردد إلى البلدة رجل يقال له « حسن الفرارجي » كان منتظماً

في العسكر ، ثم استخدم جاسوساً سرياً ، فلما بصر بالترجم أنكر حاله لارآه عليه من سبيل الاختفاء ، ورجح أنه « عبد الله نديم » ، فكتب إلى الديوان الخديوى ينبئهم بوجود رجل من العربيين مخنف بالجميزة ، وأسرع إلى ديوان الداخلية فأوضح لهم أمره ، فأعطوه ورقة بحملته ، فلما تحقق منه أخبرهم به ، فأوردوا بالقبض عليه ، وحضر من طنطا محمد أفندى فريد وكيل الحاكم ومعه نفر من الشرطة متروا ملابسهم بثياب أخرى ، فأحاط بعضهم بالبلدة متفرقين ، وصعد وكيل الحاكم مع الآخرين على تل مشرف على أفنية الدور ، وأحس المترجم بتلك الحركة ، فأوجس في نفسه خيفة ، وأراد الانتقال إلى دار أخرى ، فأخذ عَيْبَتَهُ على كتفه وصعد على سطح المسكن ، فأبصره الذين على التل ، فصاحوا وصوبوا بنادقهم عليه ، وأمره بالنزول فنزل ، ثم أحاطوا بالدار ، وطارقوا الباب طرْقاً عنيفاً ، وأيقن المترجم أنه مأخوذ لاحتالة ، ففتح له ، وواجههم منجلداً ، فسأله محمد أفندى فريد عن اسمه فقال له : « سبحانه الله ! أتجهل اسمى وأنت مأمور بالقبض على ، أنا عبد الله نديم ، ذو الذنب العظيم ، سلمت أمرى لله » . فقبضوا عليه هو وخادمه ، وأعماهم الله عن كتبه وأوراقه ، ولولا ذلك لأصابه شرٌ عظيم بسبب أهاجيه فى الخديو وأسرته ، وكان القبض عليه فى ٢٩ صفر سنة ١٣٠٩ ، ولم ينل الواشى به شيئاً من الجُمل افوات الأجل المفروب للمكافأة . ثم استاقوهما إلى المركز ، وسأله عن اخفى عندهم ، فلم يقر بأحد ، وسألوا خادمه وضربوه ، فأقر بالبهض ، ونقلوهما إلى طنطا ، فسجننا

بعض أيام ، ووكيل النيابة بوالى سؤالهما ، وانتهى الأمر بمفوض الخديو عنه وعن آواه ، ونفيه خارج القطر ، فاختار يافا ثغر القدس الشريف ، ووصل إليها فى غروب يوم الجمعة ١٢ ربيع الأول ، ونزل عند السيد على (أفندى) أبى المواهب مفتيها ، ولما دخل داره وعرفه بنفسه ، قام واعتنقه ، وضحك وبكى . فأقام عنده شهراً ، ثم اتخذ له داراً ، وعرفه أعيانها وفضلاتها ، وأكرمته وواسوه ، جزاهم الله خيراً . ثم رحل رحلته إلى نابلس وسبطينه وقلقيل وغيرها من البلاد الفلسطينية . واجتمع بطائفة السامرة واطلع على كتبهم ومعتقداتهم كما رأيته بخطه فى كتاب أرسله لأحد أصدقائه فى مستهل رمضان من تلك السنة ، ولم يزل مقيماً بيافا حتى مات الخديو توفيق ، وتولى ولده عباس فى جمادى الثانية ، فمفا عنه وأباح له العود إلى مصر ، قال فى آخر ذلك الكتاب :

«عزنا على الحضور بعد العيد إن شاء الله تعالى ، فإن موسم سيدنا موسى الكليم يعمل فى نصف شوال ، ولا أحضر حتى أزوره مرة ثانية ، فإنه صاحب الأمر بالعمو عى ، وإن كان الظاهر خلافه ، وذلك أنى عند دخولى حضرته الشريفة أنشدته فى الحال :

رجوتك يا كليم الله حاجا أرجيها وقد حققت فضلك
فقل لى مثلما لك قبل أوحى إله الخلق : قد أوتيت سؤالك
فرايته ليلا يقول لى : قم روح . ثلاثا .



ولما عاد إلى مصر استوطن القاهرة ، وأنشأ مجلة « الأستاذ » فى شهر صفر سنة ١٣١٠ ، فبرزت موشحة ببديع مقالاته ، وغرر أزجاله وموشحاته .

وبدت الوحشة في أثناء ذلك بين الخديو والإنكليز ، وكان ما كان من هزل صنيعةهم مصطفى فهمي كبير الوزراء ، ومعا كستهم فيما يريدون . فقام المترجم يستنهض الهمم ، ويحض على مؤازرة الخديو وبند طاعة سواء ، وكتب في ذلك المقالات الطويلة « بالأستاذ » ، حتى أحفظ الإنكليز ، وخشوا من اتساع الخرق لمكانته السابقة في النفوس ، وانهزها حساده فرصة فسما بما سموا ، ولفقوا له ما لفقوا ، فأوقفوا مجلته في شهر ذي القعدة من السنة المذكورة ، وأعادوه إلى يافا ، نفيا ، بعد أن أعطوه أربعمائة دينار ، وأجروا عليه خمسة وعشرين كل شهر ، واشترطوا ألا يكتب بشأن مصر كلمة ، ولم ينفعه الخديو لقصر يده .

فلما استقر المترجم بيافا لم يسلم من السعاية به لدى السلطان ، فأمر بإبعاده ، فعاد إلى إسكندرية منحيراً ، وقد لفظته البلاد لفظ الذواة ، فسى له الغازي مختار (باشا) ومساعدته حتى قبله السلطان عبد الحميد بدار السلطنة ، واستخدمه في ديوان المعارف ، ووظف له خمسة وأربعين ديناراً مجيدياً في الشهر ، فأمضى بها بقية أيامه شريداً عن وطنه ، بعيداً عن أهله وخلانه ، حتى اشتدت عليه حلة السل ، فاقى حمامه في الرابع من شهر جمادى الأولى سنة ١٣١٤ . رحمه الله . ودفن بمقبرة بجي أفندي في بشكطاش ، وضاعت مؤلفاته ودواوينه ، ولم يظهر منها إلا جزء من « كان ويكون » كان يطبعه ذيلاً للأستاذ ، وكتاب آخر نسبوه إليه اسمه « المسامير » محشو بالمجو القبيح في الشيخ أبي الهدى الصيادي نزيل دار السلطنة .

ومن تأمل بعين الاتماظ في تقارب الأحوال بالترجم وما ذاقه من
حلو الزمان ومره ، وقاساه مدة الاختفاء ، ثم النفي حتى مات غريباً طريداً ،
حق له العجب ، وعرف كيف يعبث الزمان بأهل الفضل من بنيهِ .

ونشأ المترجم فتيراً كما قدمنا ، وعاش في قلة ، فإن أصاب شيئاً بدّده
بالإسراف . وكان في أول أمره يرتدى الملابس الأفرنجية الملوّنة . فلما ظهر بعد
الاختفاء لبس الجبة والقفطان ، واعتم بمامة خضراء إشارة إلى الشرف . وكان
شهى الحديث حلو الفكاهة ، إذا أوجز ود المحدث أنه لم يوجز . لقيته مرة
في آخر إقامته بمصر ، فرأيت رجلاً في ذكاء إياس ، وفصاحة سحبان ، وقبح
الجاحظ . أما شعره فأقل من نثره ، ونثره أقل من لسانه ، ولسانه الغاية القصوى
في عصرنا هذا . وقد انتخب أخوه عبد الفتاح أفندى جملة صالحة من مقالاته ،
جمعها في كتاب سماه : « سلافة النديم » فارجع إليه إن شئت .

ومن مختار شعره قوله من قصيدة لم نثر منها إلا دلي هذا القدر :
سيوفُ الثنا تصدا ومِقْصُولِي الغمدُ
ومن سارَ في نصري تكفله الحمدُ
ومنها :

ومن عجب الأيام شهم أخو حجا
يعارضه غرر ويفحمه وغد
ومن غرر الأخلاق أن تهدر الدما
لتحفظ أعراض تكفلها الحمدُ
ويقال إنه نظمها بحضرة شاهين باشا تبكيتا إن زعم قصور الشعراء

عن معارضة أبي الطيب المتنبي في قوله :

ومن نكد الدنيا على الحرِّ أن يرى
عدوًّا له مامن صداقته بدَّ

ومن شعره قوله أيام اختفائه ، وكتب بها إلى صديق له يسليه على نازلة
نزلت به :

يا صاحبي دع عنك قولَ الهازلِ
واسمِعْ نصيحةَ عارفٍ بالخاصلِ
إجهلْ نجدَ صفوِّ الزمانِ فإنه
من قسمةِ القدمِ الغبيُّ الجاهلِ
ودع التعللَ بالتفعلِ يستقمُ
أمرُ المعاشِ فخطه للفاصلِ
وارضِ البلادةَ تفتنْ من بابها
مالاً وجاهاً بعد ذكرِ خامِلِ
وإذا أبيتَ سوى العلومِ فلا تضقْ
بحروبِ دهرٍ لا يميلُ لفاضلِ
قلبُ تواريخِ الألى سبقوا تجددُ
دُنْيَاكَ ما قيدتَ بغيرِ الباطلِ
تجديدُ الأفاضلِ فسى الزوايا كلهم
حالَ الحياةِ وبعدها بمخافِلِ

العلمُ سترٌ كالسجاب به ترى
شمسَ الحقيقة خلفَ ذاكَ الحائلِ
هل أبصرت عيناك ديواناً به
مدح البليغ جميل سعيد حافلِ
إن قلتَ : إني فاذا ذكرنا من ناله
أو : لا .. فميش كالناس في ذا الساحلِ
ضدانِ لالتقاهما في واحدٍ
مالُ الغبيُّ وحكمةُ الكاملِ
ثم ذيلها بنثر أضربنا عن ذكره .
ومن شعره ما ضمنه كتاباً كتبه مدة اخفائه لأحد أصدقائه :
وبعدُ فهذا شرح حالة غائب
عليه من اللطف الخفى مستورُ
تدورُ به الأهوالُ حول مدارها
فيصبرُ والقلبُ الرضىُ صبورُ
عسى فرجٌ يأتي به الله إنه
على فرجى دون الأنام قديرُ

مُحَمَّد عَبْدُهُ

١٢٦٦ - ١٣٢٣ هـ

[كان الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده في مقدمة العلماء الذين اصطفاهم المغفور له أحمد تيمور باشا لتلقى العلم والمعرفة عنهم . وقد سجل التاريخ أن الإمام محمد عبده كان يتخذ من دار تيمور (باشا) في درب سعادة ندوة يلتقى فيها دروسه على صفوة من العلماء والأدباء النابهين وغيرهم .

وقد عثرت لجنة نشر المؤلفات التيمورية بين مخلفات المغفور له أحمد تيمور (باشا) على جذاذات عدة تضمنت الكثير من سيرة الإمام وأعماله ، رأت نشر موجزها التالى فى هذا الكتاب]

ولد الإمام محمد عبده ونشأ فى قرية صغيرة بعيدة عن المدائن ، وهى قرية محلة نصر بمركز شبراخيت بالبحيرة .

وكان والده من أهل الطبائع السليمة والأخلاق القويمة . أما أمه فكانت من قرية « حصّة شبشير » بمركز طنطا ، تنتمى إلى بيت من بيوتها المعروفة ، يعرف ببيت آل عثمان .

ويقول الإمام محمد عبده رحمده الله — فيما كتبه من تاريخ حياته : « كنت أعتقد أن والدى أعظم رجل فى القرية ، وكل من فيها دونه ، وهو بذلك أعظم رجل فى الدنيا ، فإن الدنيا لم تسكن أوسع عندى من محلة نصر .

وكان ينزل عنده بعض الحسكام ولا ينزلون في بيت العمدة ، مع أنه أغنى وأكثر دوراً وأرضين . ونشأ في ذلك الاعتقاد بأن السكرامة وعلو المنزلة لا يتعلقان بالثروة وكثرة المال . وكنت أعقل من صغرى ما كان عليه والذي من ثباته في عزيمته ، وشده في المعاملة ، وقسوته على من يعاديه . وأخذت عنه ماعدا القسوة . أما والدتي فكانت منزلتها بين نساء القرية لا تنزل عن مكانة والذي ، وكانت ترحم المساكين وتعطف على الفقراء ، وتعد ذلك مجداً ، وطاعة لله وحداً .

شب الأستاذ على قدم أبيه محباً للفروسية والرماية والسباحة ، حتى شهر بذلك بين أترابه في القرى المجاورة .

بعد تعلمه القراءة والكتابة بمنزل والده بلغ العاشرة من عمره سنة (١٢٧٦ هـ — ١٨٥٩ م) فانتقل إلى دار حافظ للقرآن لم يكن بالقرية غيره ، فقرأ الكتاب المجيد أول مرة واستظهره بعد ذلك في عامين . ويظهر لمن رأى خط الإمام ، وهو لطيف من غير أن يكون جميلاً ، أن معلمه الأول كان على شيء من النظام والمهارة في كتابته .

وفي سنة ١٢٧٩ هـ — ١٨٦٢ م ذهب إلى الجامع الأحمدى بطنطا ليجود القرآن ، وكان هناك أخوه لأمه الشيخ مجاهد ، الذي يقال إنه كان قارئاً مجيداً وصل إلى أن صار شيخاً للمقاريء بطنطا .

أتم الشيخ فنون التجويد في نحو سنتين على الوجه الأكمل ، ولم تنفر فطرته السليمة من أساليب هذا التعليم في الجامع الأحمدى ، المشهور بتعليم

القرآن وفنون القراءات منذ زمان . وكان رحمه الله من أحفظ الناس للقرآن ، وأجودهم في تلاوته نعمة ، وأحسنهم ترتيباً .

وفي سنة ١٢٨١ هـ - ١٨٦٤ م - جلس في دروس العلم في المسجد الأحمدى . قال الأستاذ في الترجمة التي كتبها لنفسه : « قضيت سنة ونصفاً لا أفهم شيئاً لرداءة طريقة التعليم . . . فأدركنى اليأس من النجاح ، وهربت من الدرس ، واختفيت عند أخوالى مدة ثلاثة أشهر ، ثم عثر على أخى وأخذنى إلى المسجد الأحمدى ، وأراد إكراهى على طاب العلم ، فأبيت وقلت له : قد أيقنت ألا نجاح لى فى طلب العلم ، ولم يبق علىّ إلا أن أهود إلى بلدى ، وأشتغل بملاحظة الزراعة ، كما يشتغل الكثير من أقاربى . وانتهى الجدل بتغلبى عليه ، وأخذتُ ما كان لى من ثياب ومنايع ورجعت إلى محلة نصر ، على نية ألا أهود إلى طاب العلم . وتزوجت فى سنة ١٢٨٢ هـ ١٨٦٥ م - على هذه النية . »

قال الأستاذ بعد ذلك : « فهذا أول أثر وجدته فى نفسى من طريقة التعليم فى طنطا ، وهى بعينها طريقته فى الأزهر ، وهو الأثر الذى يجده خمسة وتسعون فى المائة ممن لا يساعدهم القدر بصحبة من لا يلتزمون هذا السبيل فى التعليم ، غير أن الأغلب من الطلبة الذين لا يفهمون ، تغشهم أنفسهم ، فيظنون أنهم فهموا شيئاً ، فيستمرون على الطلب ، إلى أن يبلغوا من الرجال ، وهم فى أحلام الأطفال . ثم يبئى بهم الناس ، وتصاب بهم العامة ، فتعظم بهم الرزية ، لأنهم يزيدون الجاهل جهالة ، ويضللون من توجد عنده داعية الاسترشاد ،

ويؤذوى بدعاويهم من يكون على شيء من العلم ، ويحولون بينه وبين نفع الناس بعلمه » .

وبعد أن تزوج الفتى الهارب من طلب العلم ، قهره والده على الرجوع إلى طنطا ، فهرب في الطريق إلى بلدة « كنيسة أورين » من قرى مركز شبراخيت ، وغالب سكانها من خؤولة أبيه ، وصادف في مهربه من داوى نفرته ، وسهل عليه من طلب العلم ما وجده عسيراً ، إذا اتصل بالشيخ درويش خضر ، أحد أحوال أبيه ، وهو رجل سبقت له أسفار إلى صحراء ليبيا ، ووصل إلى طرابلس الغرب ، وجلس إلى السيد محمد المدنى والد الشيخ ظافر ، وتعلم عنه شيئاً من العلم ، وأخذ عنه الطريقة الشاذلية ، وكان يحفظ بعض كتب الحديث ، ويجيد حفظ القرآن وفهمه ، ثم رجع من أسفاره إلى قريته ، واشتغل بالزراعة .

ووصف الأستاذ الأثر الذى وجده في نفسه من محبة الشيخ درويش خضر ، فقال :

« رأيتنى أطير بنفسى في عالم آخر غير العالم الذى كنت أعهده ، واتسع لى ما كان ضيقاً ، وصغر عندى من الدنيا ما كان كبيراً ، وعظم عندى من أمر العرفان والنزوع بالنفس إلى جانب القدس ما كان صغيراً . وتفرقت عنى هموم النفس ، إلاهماً واحداً ، هو أن أكون كامل المعرفة ، كامل أدب النفس » .
وبعد أن قضى الشاب فى « كنيسة أورين » خمسة وعشرين يوماً ، ذهب إلى طنطا فى شهر جمادى الآخرة سنة ١٢٨٢ هـ — أكتوبر سنة ١٨٦٥ م ، مشروح الصدر لطلب العلم ، مقبلاً عليه ببركة إرشاد الشيخ درويش .

وإذا كانت التربية الحديثة تدعو إلى تهذيب الذوق بفنون الجمال ، فإن التربية الصوفية تدعو إلى تلطيف السرّ بأنواع الرياضة ، كالعبادة المشفوعة بالفكرة ، والألحان المستخدمة لقوى النفس . هذه التعاليم من شأنها أن تربي الوجدان ، وتلطّف السر ، وتكمل النفس وتزيناها . ولا جرم أنه كان صوفي الأخلاق .

قضى الإمام نحو أربع سنين في بداية تكوينه الفكري بالجامع الأحمدي بطنطا — نسبة إلى السيد أحمد البدوي ، أشهر أولياء القطر المصري . وقد نهت هذه السنوات عقله إلى البدع الدينية وعملها في العقول والأخلاق ، بيد أنها مست أيضاً بعض الجوانب من نفسه ، فتركت في منازعها المتسامية إلى السكّال والفهم موطن تأثر . قال الأستاذ فيما كتبه من تاريخ حياته : « وفي يوم من شهر رجب من تلك السنة (١٢٨٢ هـ) كنت أطلع بين الطلبة وأقرر لهم « معاني شرح الزرقاني » فرأيت أمامي شخصا يشبه أن يكون من أولئك الذين يسمونهم بالمجاذيب ، فلما رفعت رأسي إليه قال مامعناه : ما أحلى حلواء مصر البيضاء ! فقلت له : وأين الحلوى التي معك ؟ فقال : سبحان الله ! من جَدَّ وَجَدَ . ثم انصرف . فعددت ذلك القول لإطاماً ساقه الله إليّ ، ليحملني على طلب العلم في مصر دون طنطا .

ذهب المجاور الشيخ محمد عبده بتصوفه إلى الأزهر في شوال سنة ١٢٨٢ هـ فبراير سنة ١٨٦٦ م قبل ست سنوات من وضع الشيخ المهدي العباسي شيخ الأزهر أول قانون للتدريس فيه . وأراد الجيل العلمي الجديد في ذلك العهد أن

يعرب كتباً أوربية مكتوبة في الغالب بلسان فرنسى ، ولم يجد من المصطلحات القديمة متسعاً ، فوضع عبارات محدثة ، وأوجد أسلوباً جديداً لم يرض عنه الأزهريون ، ومنذ يومئذ دخل إلى الأزهر التنارع بين القديم والجديد .

أما الروح السائدة في التعليم الأزهرى فكانت على ما وصفها بعض علماء الفرنجة في قوله : « ولئن كانت أنماط التعليم والبحث في الأزهر تختلف عما هو مستعمل في الغرب الآن اختلافاً أساسياً ، فهى لا تختلف في شىء عن الأنماط التى كانت عندنا قديماً » ، وفى قوله : « أثر العلوم النقلية في قهر العقول الذى أخذ في التلاشى عندنا منذ قرون لا يزال في عنفوان سطوته في الجامعات الإسلامية » .

وليس الغرض من العلم عند أهل الأزهر - يومئذ - هو البحث للتحقيق والمقارنة والتحصيل ، ولكنه النقل الصحيح لما ترك الأقدمون .

والمفروض أن الأجيال متراجعة إلى الانحطاط ، والأجيال الحاضرة والمقبلة تتصل بعصر النبی صلى الله عليه وسلم من خلف إلى سلف ، وأن الأمة المجتهدين بعداء في عصور ذاهبة في أعماق الماضي ، لا يستطيع الحاضر أن يدرك غبارها .

ونسارع إلى بيان أن أستاذنا صرح في تفسير سورة « العصر » بفساد ما عليه الناس من ذمّ عصورهم ، ونسبة ما شاءوا من الخير إلى ما كان قبلهم من العصور ، كما صرح في كثير أقواله من وكتاباته بعيب التعليم الأزهرى ومناهجه .

هذا وكان فى الأزهر نفسه تدافع بين الشرعيين والصوفية ، فأولئك كانوا يرون فى الخروج عن العلوم الثقيلة المتداولة فى الأزهر تمرداً على الدين ، وهؤلاء كانوا يطمحون إلى أنواع من المعارف التى لها مساس بالتصوف .

ودليل هذا التدافع ما ذكره الصوفى الأزهرى الشيخ حسن رضوان المتوفى سنة ١٣١٠ هـ - ١٨٩٢ م فى منظومته المسماة «روض القلوب المستطاب» . وقد كان للشيخ المذكور مريدون بين علماء الأزهر وطلابه ، منهم الشيخ حسن الطويل والشيخ محمد البسيونى وهما من أساتذة الشيخ محمد عبده . ومنهم الشيخ محمد عبده نفسه ، وجماعة من إخوانه . وبذلك يظهر أن الشيخ حينما جاء إلى الأزهر انضم إلى حزب التصوف ، وهو أقل الحزبين جهوداً ، وأقلهما نفرة من الجديد .

كان الأستاذ متصوفاً مدة الدراسة مع شيوخه وزملائه ، متصوفاً فى أيام المسامحات ، مع خال أبيه الشيخ درويش خضر ، حتى انطبع تفكيره بنوع من الخيال الصوفى ، اذ اذهب فى الروحانيات إلى ما يجاوز مدى الفهم أحياناً .

انساق بعض الأساتذة فى الأزهر إلى دراسة الفلسفة الإسلامية بحكم نزوعه إلى التصوف الإسلامى الذى صار متأثراً بمذاهب الفلسفة ، وخصوصاً مذهب أرسطو الذى يعتبر إماماً لفلاسفة العرب . كما انساق بعضهم أيضاً إلى مدارة الأدب باعتباره من الفنون الجميلة . وقد كان الشيخ حسن الطويل والشيخ محمد البسيونى من أساتذة الشيخ محمد عبده ، فهو كان متصلاً بالحركة الصوفية المخلوطة بالفلسفة ، وكان متصلاً بالحركة الأدبية . على أنه لم يبعد كل

البعد عن المحافظين على القديم ، فحضر دروس زعمائهم المشهورين كالشيخ عlish
والشيخ رفاعى والشيخ الجيزاوى والشيخ الطرابلسى والشيخ البحراوى .

ولما حضر إلى مصر السيد جمال الدين الأفغانى — فى سنة ١٢٨٨ هـ
١٨٧١ م صاحبه الأستاذ الشيخ محمد عبده ، يحضر دروسه ، ويلازم مجالسه
التي كانت مجالس حكمة وعلم . وكان يومئذ فى متأثرة عواطف قلبه الفنى بمنازع
التصوف ، ورياضاته ومواجهه . وكان يتلقى علوم الأزهر على أنماطها المعروفة ،
شاعراً بأن وراءها كمالاً علمياً لا يجده فيما حوله . . وكان السيد الأفغانى وحده
قادراً على تخليص الشيخ محمد عبده من خموله الصوفى ، وتخليصه من الخيرة
فى التماس السكال العلمى ؛ إذ كان السيد جمال الدين الأفغانى ، الكبير بمواهبه
الفطرية ، وبسعة علمه ، وحسن نظام فكره ، وسمو مطامحه ، وعلو نفسه القوية ،
المشتعلة حياةً وعزماً ، والمملوء بالحوادث الجلى والآلام ، قد صاحبه الشيخ
محمد عبده تلميذاً وصديقاً منذ سنة ١٢٨٨ — ١٢٩٦ هـ (١٨٧١ — ١٨٧٩ م) .
وبعد سنتين من صحبة الشيخ محمد عبده للسيد جمال الدين ظهر لنا ذلك الشاب
المتصوف الذى كان ينطلق فى القول على وجل إذا سأله العامة عن شيء من
أمر دينهم فى تلك المجمع التي كان يقوده إليها خال أبيه الشيخ درويش ، مؤلفاً
جريئاً يكتب رسالة سنة ١٢٩٠ هـ — ١٨٧٣ م وفيها الكثير من المذاهب
الفلسفية والصوفية .

وفى سنة ١٢٩٢ هـ — ١٨٧٥ م — ألف الشيخ محمد عبده حاشيته على
شرح الجلال الدوانى للعقائد العضدية . ولم يكن يومئذ قد جاوز السادسة

والعشرين من عمره ولكنه ظهر فيها محيطاً بمذاهب المتكلمين والفلاسفة المتصوفة إحاطة فهم وقد ، وقد ضمنها توضيحاً لمختلف المذاهب في الإلهيات والنبوات .

وأول ما نشر على الناس من آثاره هو ما كتبه في جريدة « الأهرام » لبداية نشأتها سنة ١٢٩٣ ١٨٧٦ م وهي فصول سامية المنزعة مشتملة على أصول الدعوة الإصلاحية التي صرف حياته في سبيلها . وقد استرعت تلك الفصول نظر الناس إلى ذلك الفتى الناهض إلى السابعة والعشرين من عمره نهضة المصلحين الكبار ، عاقلاً جريئاً .

وفي سنة ١٢٩٤ ١٨٧٧ م . نال الشيخ محمد عبده الشهادة العالمية الأزهرية من الدرجة الثانية ، وهو ابن ثمان وعشرين سنة .
وأخذ يدرس كتب المنطق والكلام المشوب بالفلسفة في الجامع الأزهر ويدرس في داره لبعض المجاورين كتاب « تهذيب الأخلاق » لابن مسكويه ، وكتاب التحفة الأدبية في تاريخ تمدن الممالك الأوربية ، تأليف الوزير فرانسوجيزو ، وتعريب الخواجة نعمة الله الخورى .

وفي أواخر سنة ١٢٩٥ هـ - ١٨٧٩ م نفى من مصر بمساعي الإنجليز السيد جمال الدين الأفغانى الذى كان عمله السياسى شعبى فى حلق ممثل إنجلترا بمقدار ما كان تجديده لدرس الفلسفيات غيظاً للجامدين من أهل الأزهر . وعزل الشيخ محمد عبده من مدرسة دار العلوم ومدرسة اللسان ، وأمر بأن يقيم فى قربته « محلة نصر » لا يفارقها أبداً إلى بلد آخر .

في أوائل حكم الخديو توفيق حصلت هذه الحادثة ، وكان الوزير الكبير رياض (باشا) خارج القطر - وهو الذى قد زين للسيد جمال الدين المقام في مصر وأمده بالمعونة ليستعين بها على تربية شباب مصلح . وإذا كان الوزير الكبير قد عجز عن ردّ ما فات من نفي السيد الأفغانى ، فما كان ليفوته أن ينتفع بتلاميذه ، وما كان ليترك خليفة السيد جمال الدين منفياً في قرية من قرى البحيرة ، محرماً عليه أن يخرج منها ، فاستصدر له عفواً من الخديو سنة ١٢٩٧ هـ (١٨٨٠ م) وعينه محرراً في الجريدة الرسمية ، ثم جمعه في آخر السنة رئيس تحريرها .

ولقد نهض الشيخ محمد عبده بحركة إصلاح هيأت له مساعدة رياض وسائلها ، وأعانها عليها خيرة تلاميذ السيد جمال الدين الذين كانوا يشتغلون معه في تحرير الجريدة الرسمية . إلا أن صلة الأستاذ بالأزهر قد انقطعت يومئذ ، فلم يعد معلماً يريد أن يصلح طرق التعليم فيه ، ويرشد أهله إلى العلوم الجديدة ، ولكنه أصبح صحافياً يحاول الإصلاح الاجتماعى والسياسى على مبادئ الحرية والعدالة والشورى .

ألم الشيخ رئيس تحرير الجريدة الرسمية « الوقائع المصرية » في فصوله الكبيرة الفائدة القوية الروح بوجوه الإصلاح التى كانت تنبعث عزيمته إليها . فدعا إلى التعاون على الخير ، وجذب فكرة الحرية ورفع المظالم عن الأهالى . وعاب على الشعب كسله ، ونادى بإصلاح التعليم والتربية في المدارس ، وحمل على الرشوة وأهلها ، وبين أن الحق للقانون لا للقوة ، وذم إسراف

الأهالى وتمسكهم بظواهر المدنية مع الغفلة عن وسائل المدنية الصحيحة ، وعالج إصلاح منتدياتنا وإصلاح بيوتنا . وذكر رأيه فى خطأ العقلاء الذين يريدون الرقى طفرة ووثوباً .

ثم تعرض الأستاذ لنوع من الإصلاح الدينى ، شغف به فى أدوار حياته الإصلاحية كلها : ذلك هو تطهير الإسلام من البدع التى شوهت شعائره وجنت عليه . وهذه المقالات تجمع مبادئه الوطنية ، ومذاهبه فى الحرية ، وطريقه فى الإصلاح .

كان الشيخ وطنياً يرى أن خير أوجه الإصلاح للوطن هو تحقيق وحدته ليمتنع الخلاف والنزاع فيه . على أنه نصير للمبادئ التى تدعو إلى المحافظة العامة على دعائم السلام والإخاء بين الناس . وهو داع إلى الحرية ، حرية العمل ، ورفع سوط القسوة غير القانونية ، بحيث لا يسخر أحد فى عمل من الأعمال إلا فيما يعود بالمنفعة العامة على البلاد . أما سبيل الأستاذ فى الإصلاح ، فهى سبيل التدرج ، يريد أن يحفظ للأمة عوائدها السكينة المقررة فى عقول أفرادها . ثم يطلب بعض تحسينات فيها لاتبعد عنها بالمرة ، فإذا اعتادوها طلب منهم ما هو أرق بالتدرج ، حتى لايمضى زمن طويل إلا وقد انخلعوا عن عاداتهم وأفكارهم المنحطة إلى ما هو أرق من حيث لايشعرون .

وتأثر الشيخ بمبادئ أستاذه ، ومع ذلك كان لمذاهبه الإصلاحية استقلال يجعل لها شخصية وحدها . ولقد كان حين توليه تحرير الجريدة حديث عهد بصحبة أستاذه ، حديث عهد بالتخرج على يديه . . وكانت له على هذا سبيل

فى الإصلاح لىست من كل وجه سبيل السيد جمال الدين — إاؑ كان السيد مشتل الحاسة ، برىء أن يلهب النفوس فىؤجج نارها . ثم يصوغ من ضعفها قوة ، ومن ذلها عزا . كان برى أن الثورات هى سبيل الإصلاح الاجتماعى والسياسى . أما الشيخ محمد عبده أيام تحرير الجريدة الرسمية فكان معلما مصلحا يطلب الأناة فى دفع الأمم إلى الرقى ، ليعلمها ويهذبها أولا ، ثم يسوقها برفق إلى ما علمت .

ولقد كانت له وهو رئيس لتحرير الجريدة الرسمية يدٌ عاملة فى حركة الأفكار ، ولم يكن ممن يدعون إلى الإصلاح من طريق الثورة عندما هبت أعاصير الثورة العرابية ، ولما أن رآها قائمة لنصرة أغراض هى مبادئ ومبادئ أستاذة اتصل بها ، وألقى فى نارها خطبا ، وقد حوكم مع زعمائها ، وحكم عليه بالنفى ثلاث سنين وثلاثة أشهر . فسافر رحمه الله إلى سورية فى حدود سنة ١٢٩٩ هـ ١٨٨٣ م وأقام فيها سنة ، وسافر إلى أوروبا على موعد بينه وبين أستاذة وصديقه السيد جمال الدين ، فأقام فيها عشرة أشهر معظمها فى باريس ، وهناك أصدر معا جريدة « العروة الوثقى » التى كان السيد الأفغانى مدير سياستها والشيخ محمد عبده محررها الأول .

وكانا ألفا جمعية من مسلمى الهند ومصر والمغرب وسورية ، غرضها السعى فى جمع كلمة المسلمين ، وإيقاظهم من رقادهم ، وإعلامهم بالأخطاء المحدقة بهم وإرشادهم إلى طريق مقاومتها . إلا أنه فى آخر سنة ١٣٠١ هـ — ١٨٨٤ م احتجبت الجريدة بعد ثمانية أشهر لقيت فيها كل مصادرة فى الهند ومصر .

وأخفق حلم السيد جمال الدين الأفغانى بإنشاء دولة إسلامية تنهض بالشرق نهوضاً يزاحم الغرب بالمناكب ، ويحد من عدوانه .

ثم سافر الأستاذ إلى تونس ، فأقام فيها أياماً . وسافر إلى بلاد أخرى متنكراً لتوثيق عقود العروة الوثقى السرية . وألقى عصا السير بعد ذلك إلى بيروت . فأقبل عليه أهل العلم والفضل من جميع الملل والطوائف . وكانت داره مدرسة يؤمها الأذكياء وعشاق المعارف والآداب ، وقد وصلته روابط وُدٍّ بمجى الدين بك حماده ، فتزوج بنت أخى هذا الصديق بعد وفاة زوجته الأولى .

وفى أوائل سنة ١٣٠٣ هـ — ١٨٨٥ م . دُعى للتدريس فى المدرسة السلطانية لإحياء اللغة والدين فيها . وكان يشغل مع التدريس بالتأليف والكتابة . وقد ألّف « رسالة التوحيد » هناك ، ونقل إلى العربية رسالة « الردّ على الدهريين » التى كتبها السيد جمال الدين باللغة الفارسية ، وشرح كتاب « نهج البلاغة » و « مقامات بديع الزمان الهمدانى » .

وعاد الأستاذ فى سنة ١٣٠٦ هـ — ١٨٩٨ م . من منفاه ، ولكن الخديو توفيق خشى أن يربى له تلاميذ على أفكاره ومنازعه ، فلم يرخص بتعيينه معلماً — كما كان يشتهى — بل عينه قاضياً بمحكمة بنها الأهلية ، ومنها انتقل إلى محكمة الزقازيق ، فمحكمة عابدين .

وفى سنة ١٣٠٨ هـ — ١٨٩٠ م عين مستشاراً بمحكمة الاستئناف الأهلية .

وفي سنة ١٣١٢ هـ - ١٨٩٤ م جعلته الحكومة المصرية عضواً في مجلس إدارة الأزهر ، وهو أول مجلس أسس بسعيه ليكون رسول الإصلاح .

ولست بقين من المحرم سنة ١٣١٧ هـ (٣ يونية ١٨٩٩ م) عين مفتياً للديار المصرية . وفي هذه السنة عينها جعلته الحكومة عضواً في مجلس شورى القوانين .

كان عند الأستاذ ميل إلى تعلم لغة أجنبية ، فلم تدع له الحوادث متسعاً . لكن تعلم لغة أجنبية كان أمنية من أمانيه لم تزل تعالجها همته الكبيرة حتى بلغتها . تعلم اللغة الفرنسية بعد أن عاد إلى مصر واشتغل بالقضاء ، وهو ابن أربع وأربعين سنة ، وأحكمها قراءة وكتابة وحديثاً ، كما ذكره أكثر من ترجموا له - وكان رحمه الله يقول : « من لم يعرف لغة من لغات العلم الأوروبية فلا يعد عالماً في هذا العصر » .

وقد سافر إلى أوروبا عدة مرات ، واستفاد من سياحاته ومن مطالعته لكتب الغربيين في الفنون المختلفة ، وظهر أثر ذلك في أفكاره وكتاباتهِ ودعواتهِ الإصلاحية .

أقام الأستاذ في القضاء الأهلى حوالى عشر سنين ، ظهرت فيها كالاته الأخلاقية والعلمية . وانصرف في أثنائها إلى درس اللغة الفرنسية والمطالعة ، والقيام بأعباء منصبه . وتلك كانت مدة تجميع لوثبة الإصلاح التى بدأت يوم دخوله مجلس إدارة الأزهر فتعيينه مفتياً للديار المصرية .

في ذلك العهد أزهـر نشاط الأستاذ في الإصلاح الدينى والعلمى والاجتماعى ،

ووصل الشيخ محمد عبده — كما يقول قاسم بك أمين في تأبينه — : « إلى مقام الإمام بأوسع معناه ، مقام مكنه من أن يمسك بيده زمام أمة ، ويحركها نحو الخطئة التي رسمها ، ويسوقها في طريق المستقبل الذي هياه لها » .

وظل الأستاذ الإمام يجاهد في سبيل الإصلاح والرفق ، غير منهزم أمام جمود الجامدين ، وظلم الظالمين ، وكيد الكائدين ، حتى ذهب إلى ربه يوم ٨ جمادى الأولى سنة ١٣٢٣ هـ — ١١ يولية سنة ١٩٠٥ م رحمه الله تعالى .

وقد كتب الشيخ محمد عبده بقله في ترجمته لنفسه ، ملخصاً سيرته وأعماله بقوله : « ارتفع صوتي بالدعوة إلى أمرين عظيمين : الأول تحرير الفكر من قيد التقليد وفهم الدين على طريقة سلف الأمة ، قبل ظهور الخلاف ، والرجوع في كسب معارفه إلى ينابيعها الأولى ، واعتباره من موازين العقل البشري ، التي وضها الله لترد من شططه ، وتقلل من خاظه وخبطه ، لتم حكمة الله في حفظ نظام العالم الإنساني ، وأنه على هذا الوجه يعد صديقاً للعلم باعتماداً على البحث في أسرار الكون ، داعياً إلى احترام الحقائق الثابتة ، مطالباً بالتعويل عليها في آداب النفس وإصلاح العمل . وكل هذا أعده أمراً واحداً ، وقد خالفت في الدعوة إليه رأى الفئتين العظيمتين اللتين يتركب منهما جسم الأمة : طلاب علوم الدين ومن على شاكلتهم ، وطلاب فنون هذا العصر ومن هو في ناحيتهم .

وأما الأمر الثاني : فهو إصلاح أساليب اللغة العربية في التحرير ، سواء كان ذلك في الخطابات الرسمية بين دواوين الحكومة ومصلحتها . أو فيما

تنشره الجرائد على السكافة منشأ أو مترجماً من لغات أخرى . أو في المراسلات بين الناس . وكانت أساليب الكتابة في مصر تنحصر في نوعين كلاهما يمجّه الذوق ، وتنكره لغة العرب .

وهناك أمر آخر ، كنت من دعائه والناس جميعاً في عمي عنه ، وبعد عن تعقله ، ولكنه هو الركن الذي تقوم عليه حياتهم الاجتماعية . وما أصابهم الوهن والضعف والنل إلا بخلو مجتمعهم منه ، وذلك هو التمييز بين ما للحكومة من حق الطاعة على الشعب ، وما للشعب من حق العدالة على الحكومة . نعم كنت ممن دعا الأمة المصرية إلى معرفة حقها على حاكمها ، وهى هذه الأمة التى لم يخطر لها هذا الخاطر على بال ، من مدة تزيد على عشرين قرناً .

دعوناها إلى الاعتقاد بأن الحاكم وإن وجبت طاعته ، هو من البشر الذين يخطئون ، وتغلبهم شهواتهم ، وأنه لا يردّه عن خطئه ولا يقف طغيان شهوته إلا نصيح الأمة له بالقول والفعل .

جهرنا بهذا القول ، والاستبداد فى عنفوانه ، والظلم قابض على صولجانه ، ويد الظالم من حديد ، والناس عبيد له وأى عبيد .

نعم إننى فى كل ذلك لم أكن الإمام المتبع ، ولا الرئيس المطاع ، غير أنى كنت روح الدعوة ، وهى لا تزال فى كثير مما ذكرت قائمة .

ولا أبرح أدعو إلى عقيدتى فى الدين ، وأطالب بإتمام الإصلاح فى اللغة وقد قارب — أما أمر الحكومة فقد تركته للقدر يقدره ، وليد الله بعد ذلك نديره ، لأننى قد عرفت أنه ثمرة تجنبها الأمم من غراس تفرسه ، وتقوم على

تتميته السنين الطوال . فهذا الغراس هو الذى ينبغى أن يعنى به الآن .
والله المستعان .

وقد نمته أكثر الصحف العربية والإفريقية ، وأفاضت القول فى رثائه ،
واحتفل بتشييع جنازته رسمياً فى الإسكندرية والقاهرة . واشترك فيها ألوف
من مختلف الطوائف والهيئات .

وفى اليوم الأربعين لوفاته أقيم حفل كبير لتأبينه تحدث عنه فيه الأساتذة
حسن عاصم (باشا) والشيخ أحمد أبو خطوة ، وحسن عبد الرازق (باشا)
وقاسم أمين (بك) ، وألقى العالم الأديب حفى ناصف (بك) قصيدة عصماء ،
كما ألقى شاعر النيل حافظ إبراهيم (بك) قصيدة رثاء أخرى ، استمعيت
أبياتها مرات ، ونذكرها فيما يلى :

سلام على الإسلام بعد محمد

سلام على أيامه الثغرات

على الدين والدنيا ، على العلم والحجى

على البر والتقوى ، على الحسنات

لقد كنت أخشى عادى الموت قبله

فأصبحت أخشى أن تطول حياى

فوالهنى والقبر بينى وبينه

على نظرة من تلكم النظرات

وقفت عليه حاسر الرأس خاشعاً
كأنى حيال القبر في عرفات
لقد جهلوا قدر الإمام فأنزلوا
تجاليده في موحش بفلاة
ولو أضرحو بالمسجدين لأنزلوا
بخير بقاع الأرض خير رفات
تباركت، هذا الدين دين محمد
أترك في الدنيا بغير حماة؟
تباركت، هذا عالم الشرق قد قضى
ولانت قناة الدين للغمزات
زرعت لنا زرعاً فأخرج شطأه
وبذت ولما نجتن الثمرات
فـواهاً له ألا يصيب موقفاً
يشارفه والأرض غير موات
مددنا إلى الأعلام بعدك راحنا
فردت إلى أعطافنا صفرات
وجالت بنا تبغى سـواك عيوننا
فعدن وآثرن العمى شريقات

وَأَذُوكَ فِي ذَاتِ الْإِلَهِ وَأُنْكُرُوا
مَكَانَكَ حَتَّى سَوَدُوا الصَّفَجَاتِ
رَأَيْتَ الْأَذَى فِي جَانِبِ اللَّهِ لَذَّةَ
وَرَحَتٍ وَلَمْ تَهَمَّ لَهُ بِشَكَاةٍ
لَقَدْ كُنْتُ فِيهِمْ كَوَكْبًا فِي غِيَابِ
وَمَعْرِفَةٍ فِي أَفْسِ نَكْرَاتِ
أَبْنَتَ لَنَا التَّنْزِيلَ حَكْمًا وَحِكْمَةً
وَفَرَقْتَ بَيْنَ النُّورِ وَالظُّلُمَاتِ
وَوَقَّعْتَ بَيْنَ الدِّينِ وَالْعِلْمِ وَالْحُجْبَى
فَأُطْلِمْتَ نُورًا فِي ثَلَاثِ جِهَاتٍ
وَقَفْتَ لَهَا نُورُتُو وَرَيْنَانَ وَقَفَّةَ
أَمْدِكَ فِيهَا الرُّوحُ بِالنَّفْعَاتِ
وَخَفْتَ مَقَامَ اللَّهِ فِي كُلِّ مَوْقِفٍ
خَافَكَ أَهْلُ الشُّكِّ وَالنَّزَعَاتِ
وَكَمْ لَكَ فِي إِغْفَاءِ الْفَجْرِ يَقْظَةً
نَفَضْتَ عَلَيْهَا لَذَّةَ الْمَجْمَاتِ
وَوَلَيْتَ شَطْرَ الْبَيْتِ وَجْهَكَ خَالِيًا
تَنَاجَى إِلَهَ الْبَيْتِ فِي الْخُلُوتِ

وكم ليلة عانته في جوفها الكرى
ونبت فيها صادق العزَماتِ
وأرصدت للباغى على دين أحمد
شَبَابَ يراع مـاحر النفثاتِ
إذا مس حد الطرس فاض جبينه
بأسـطار نور باهر اللغاتِ
كأن قرار الكهرباء بشقه
يُريك سناه أيسر اللغاتِ
فيا سِنَّة مرّت بأعوادِ نَمشه
لأنّ علينا أشأم السنواتِ
حطمت لنا سيفاً وعطلت منبراً
وأذويت روضاً ناضر الزهراتِ
وأطفأت نبراساً وأشعلت أنفسا
على جمرات الحزن منطوياتِ
رأى في لياليك المنجمُ ما رأى
فأنذرنا بالويل — ل والعثراتِ
ونبأه علم النجوم بمحدثِ
تبيت له الأبراج مضطرباتِ

رمى السرطان الليث والليث خاذرٌ
وربّ ضعيف نافذ الرمياتِ
فأودى به خنسلًا فال إلى الثرى
ومالت له الأجرامُ منحرفاتِ
وشاعت تغزى الشهب باللع بينها
هن النبير الهادى إلى الفلواتِ
مشى نمشهُ بمخال مجبأ برُّبه
ويخطر بين اللس والقبلات
تكاد السموع الجلوات تُقلِّه
وتدفيه الأنفاس مستمراتِ
بكى الشرقُ فارتجت له الأرض رجَّةً
وضاقت عيونُ الكون بالمبرات
ففى الهند محزون وفى الصين جلازعُ
وفى مصر هالك دائم الحسرات
وفى الشام مفجوعٌ وفى الفرس نادبُ
وفى تونس ماشئت من زفراتِ
بكى عالمُ الإسلام عالمَ عصره
مزاج الدياجى هادم الشبهاتِ

ملاذ هيابل نمل أرامل
غياث ذوى عدم إمام هداة
فلا تنصبوا للناس نعال عبده
وإن كان ذكرى عبرة وثبات
فانى لأخشى أن يضلوا فيومثوا
إلى نور هذا الوجه بالسجدة
فياويح للشورى إذا جدّ جدّها
وطاشت بها الآراء مشنجات
وياويح للفتيا إذا قيل من لها
وياويح للخيرات والصدقات
بكين على فردٍ وإن بكاءنا
على أنفسٍ لله منقطات
تمهدا فضل الإمام وحاطها
بإحسانه والدهر غير موتٍ

* * *

فيامنزلاً في عين شمس أظلى
وأرغم حسادى وغمّ عدائى
دعاه التقوى وآسسه الهدى
وفيه الأيادى موضع اللّبنات

عليك سلام الله مالك موحشاً
عبوس المعاني مقفر العرصات
لقد كنت مقصود الجوانب أهلاً
تطوف بك الآمال مبهلات
مناية أرزاق ومهبط حكمة
ومطلع أنوار وكنز هظلت

أحمد أبوخطوة

١٢٦٨ هـ - ١٣٢٤ هـ

يتصل نسبه بالإمام الحسين بن علي رضي الله عنهما ، وجده السابع أبوخطوة مدفون في « مطوبس » . وجده الحادى عشر محمد أبوخطوة أول من نزل من الأسرة في بلدة كفر ربيع بمركز تلا في المنوفية ، وقد هاجر إليها بعد موت أبيه سالم المدفون بالحدين بالبحيرة ، ومن أجداده : السيد عبد الرحيم القنأى صاحب الفريخ المشهور بقنا .

وقد ولد الشيخ أحمد أبوخطوة في ٢٠ ذى القعدة سنة ١٢٦٨ هـ ببلدة كفر ربيع ، ونشأ بها حفظ القرآن وبهض المتنون ، ثم سافر للقاهرة لطلب العلم بالأزهر في ١٦ شوال سنة ١٢٨١ هـ واشتغل فيه بقراءة الفقه على مذهب الإمام الأعظم أبى حنيفة النعمان .

ومن شيوخه الشيخ محمد البسيونى البيبانى ، والشيخ أحمد الرفاعى الفيومى ، والشيخ عبد الرحمن البحراوى ، والشيخ عبد الله المدرستاوى ، والشيخ حسن الطويل .

وكان أكثر تحصيله للعلوم العقلية دلى الشيخ حسن الطويل ، ولازم صحبته ، وتخلق بأخلاقه ، وتلقى عنه فى داره العلوم الحسكية والرياضية وكثيراً من كتبها مثل : « شرح الهداية » للبيدى ، و « العاوالع » ، وأكثر

« المقاصد والمواقف » و « إشارات ابن سينا » بالشروح لنصير الدين الطوسي والإمام الرازي . و « المحاكمات » و بعض كتاب « النجاة » لابن سينا ، و « أشكال التأسيس » بشروحها في الهندسة . و « تحرير إقليدس » . وفي الهيئة « شرح الجفميين » و تذكرة « نصير الدين الطوسي » وفي الحساب خلاصة بهاء الدين العاملي بشرح البورصاوى ، و « المعونة » و شرح ابن الهائم وغيرها . وفي المنطق « القطب » بمحاشيه و « المطالع » و « الخليمي » و « إيساغوجي » وغيرها .

و امتحن للعالية والتدريس في ١٨ صفر سنة ١٢٩٣ وكن مجلس الامتحان مكوناً من الشيخ عبد الرحمن البحراوى ، والشيخ عبد القادر الرافعى الحنفين والشيخ أحمد شرف الدين المرصفى والشيخ زين المرصفى الشافعيين ، والشيخ أحمد الرافعى والشيخ أحمد الجزاوى المالكيين ، برئاسة شيخ الأزهر ومنفى الديار المصرية الشيخ محمد المهدي العباسى ، فلما امتحنوه أعجبوا به إعجاباً شديداً لجودة تحصيله وشدة ذكائه ، فأجازوه ، إلا أنه أصر التدريس لاشتغاله بتنظيم ما كان يقرؤه على الشيخ حسن الطويل . ثم ابتداء في القراءة بالأزهر سنة ١٢٩٦ هـ فقرأ به الكتب المتداولة به وغيرها ، وتخرج عليه جمع من الأفاضل ، منهم : الشيخ محمد شاكر ، والشيخ محمد حسنين المدنى ، والشيخ محمد بخافى ، والشيخ سعيد الموجى ، والشيخ محمد الغرنى ، والشيخ مصطفى سلطان .

ثم جعل مفتياً لديوان الأوقاف ، فكانت له اليد الطولى في إصلاحه وعاون من به على تحسين أموره بمجودة عقله وحسن رأيه . وحسبك أنه دخله

وإيراده مائة وعشرون ألف دينار وخرج منه وإيراده يربو على مائتي ألف دينار . ثم نقل عضواً في المحكمة الشرعية الكبرى بالقاهرة ، ورأس المجلس العلمى للنظر والفصل فى القضايا الكبرى ، ثم انتدب للمحكمة العليا بـمد ذلك ، فكانت له اليد الطولى فى إصلاحها ، ومنع شهادات الزور ، وإصلاح حال المحامين ، وكانت وفاته فى شوال سنة ١٣٢٤ هـ عليه رحمة الله .

أحمد مفتاح

١٢٧٤ - ١٣٢٩ هـ

هو العالم الشاعر النثر الشيخ أحمد بن مفتاح بن هرون بن أبي النعاس .
ينتهي نسبه إلى عمار ، بضم العين الموهلة وتخفيف الميم ، أحد العرب النازلين
من الصفراء إلى أرض مصر حوالى القرن العاشر ، وبين أبي النعاس وعمار
جدان أو ثلاثة .

ولما ورد عمار « معمر » قطن بإقليم منية ابن الناصب (١) في صعيد
مصر ، وقام بين عرب تلك الجهة منازعة أدت إلى مقاتلة ، كان جد المترجم
أبو النعاس له اليد الطولى فيها ، ويقال : إنه حضر « بض الوقائع بدون سلاح »
ولقوته أمهك جعشاً صغيراً من رجليه وضرب به حتى مات الجعش .

وقطن هرون الجدد الأدنى للمترجم في بلدة على الشاطئ الغربى للنيل
بإقليم المنية تابعة لبنى مزار ، أنشأها حسن بن عبد العزيز أحد أجداد المترجم
من جهة والدته ، وهى بلدة صغيرة اشتهرت بين العامة باسم بنى عجيز محرفاً عن
أبى عزيز يعنون به حسن بن عبد العزيز مؤسسها على عادتهم فى تسمية
الرجل باسم أبيه . وما زال هرون المذكور بها حتى ولده له مفتاح أبو المترجم
سنة ١٢٢٩ هـ وكان فى هذه البلدة رجل اسمه على أبو محمد من أقارب والده

(١) مى الآن : محافظة المنيا .

المرّجم ، جعلته الحكومة شيخ المشايخ ، وهو لقب كان يطلق إذ ذاك على من يحكم عدة بلاد ، وكان جائراً فى معاملته ، فاعتدى على أناس من أهل البلد بالضرب حتى أشرفوا على الهلاك ، فاضطر بعض أهلها إلى الشكوى للمدير مستعينين بعلى أفندى الشريعى والد حسن باشا الشريعى . وبعد اللتيا والتى ساعدوم على الانفصال فانفصلوا واختطوا بلدة أخرى شمالى أبى عزيز سنة ١٢٦٤هـ سموها نزلة عمرو . وانتقل إليها هرون ، بولده أبى المرّجم وابتنى بها داراً كبيرة ، وبقي بها حتى مات بعد أن أسن ، وكان شديد الرأى يرجع إليه فى المشكلات . ثم سكن هذه البلدة بعده ولده مفتاح وتزوج بها ، وأعقب جميع أولاده وحج سنة ١٣٠٤هـ فأرخ حجه ولده المرّجم بقوله :

حج مفتاح أبى معتمراً

١٣٠٤

ومات سنة ١٣٠٨هـ وكان طويلاً ، خفيف اللحية ، وقد وخطها الشيب ، وكان اشتغاله بالزراعة دون غيرها . ويتحرى الحلال فى كسبه ، ويقول الحق ولو على نفسه ، وتعلم القراءة والكتابة فى السكبر ، ولم يجدهما .

ولما وصل نفيه إلى ولده المرّجم بالقاهرة رثاه على البديهة بقوله :

قضى والدى بالرغم منى ولينى	سبقت لأمر ساورتنى غوائله
لقد عاش دهرأ لم يشبه برية	حياة سخي قاض بالقوم نائله
وقام بعب الدين والفضل صادقاً	وما المرء إلا دينه وفضائله
عليه سلام كلما غاب كوكب	وسالت من الجفن القريح هوامله

وكانت ولادة المترجم ليلة السبت الرابع من شعبان سنة ١٢٧٤ هـ . ونشأ بالبلدة المذكورة في حياطة والده ، وابتدأ القراءة على الشيخ جاد المولى ، فقرأ عليه القرآن وبعض المتون ، ومكث بعدها نحو ثلاث سنوات . ثم حضر إلى القاهرة سنة ١٢٨٩ هـ لطلب العلم بالجامع الأزهر ، وتلقى عن شيوخ وقته . فقرأ النحو : على الشيخ محمد الشعراوي المغربي ، والشيخ عرفه سالم الدفطلي ، والشيخ عبد الله الفيومي ، والشيخ محمد البحيري ، والشيخ سالم البولاقى ، والشيخ محمد الإنابى . والفقه الحنفى : على الشيخ عبد الرحمن السويدي ، والشيخ صالح قرقوش . وحضر بعض دروس الأستاذ الكبير الشيخ محمد العباسي المهدي شيخ الجامع الأزهر واتفق معه إزاء ذلك . والبيان : على الشيخ عرفه ، والشيخ على الجنائى ، والشيخ محمد البحيري . وآداب البحث : على الشيخ محمد البحيري المذكور . والمناظرة : على الشيخ محمد عبده ، والشيخ أحمد أبو خطوة ، والشيخ سالم البولاقى ، والشيخ محمد البحيري . والعروض : على الشيخ محمد موسى البجيرى .

وفي أثناء مجاورته كان مسافراً من بلده إلى القاهرة في سفينة كبيرة أيام زيادة النيل ، ونزل يغتسل على سكان السفينة مع جماعة ، فأنحدر مع الماء في وسط النيل ، وتبعه أحد المغتسلين لإنجاده ، فزال سابحاً حتى كلت سواعده ، وكاد يفرق ، ثم نجا ، وخرج على الشاطئ الغربى للنيل ، وأرسل له من بالسفينة زورقاً وصل به إليها . وسافر مرة من القاهرة عائداً إلى بلده في سفينة ، فتشاحن مع ربانها تشاحناً أدى إلى إخراجه منها ، فخرج إلى بلدة يقال لها الرقة بإقليم

بنى سويف لابلانك شروى تقير ، سوى كتاب مخطوط رهنه فى أجرة القطالو
إلى بلدته . وله نوادر كثيرة أمثال ذلك من المشى على القدمين مسافات بعيدة ،
والمبيت على الطوى فى كل غدوة وروحة بين القاهرة وبلدته .

وبعد أن قضى سبع سنوات بالأزهر مجدداً فى طلب العلم ومباحثة الشيوخ ،
عاد إلى بلدته ، ومكث بها نحو سنتين مشغولاً بحفظ الشعر ونظمه ، ولم يكن له
بالأزهر كبير عناية به ، لإصرافه إلى تحصيل العلوم .

ثم حضر إلى القاهرة ، ودخل مدرسة دار العلوم سنة ١٢٩٨ هـ فأعاد بها
معظم العلوم العربية مع الجزء الأول من تاريخ ابن خلدون المشهور بالمقدمة
على الشيخ حسين المرصفي ، ثم خلفه فى تدريس اللغة العربية شيخنا الشيخ
حسن الطويل ، فتلقى عنه بعض المثل السائر ورسالة ابن زيدون الهجوية ،
والزوراء للجلال الدواني فى الحكمة ، وانتفع به كثيراً ، وقال فيه وفى
الأستاذ المرصفي :

دار العلوم شكت فراق أبى الهدى

المرصفي الحبر أوحسد ذا الزمن

فأجبتها حسن المعارف بعده

لأنجز عى إن الحسين أخو الحسن

وتلقى التفسير والحديث بالمدرسة عن الشيخ أحمد شرف الدين المرصفي .
والفقه الحنفي عن الشيخ حسونه النوادي ، والعلوم الطبيعية والرياضية على

أستاذة آخريـن بالمدرسة . ثم خرج منها بعد أن نال الشهادة الدالة على براعته
سنة ١٣٠٢ هـ فقال بعد مفارقتها المدرسة مضمناً :

دار العلوم نثرت نظم أحبة
كانوا بدوراً في سماء عسلاك
حتى بلى عهدى بهم وتغيروا
« يا دار غيرك البلى ومحاك »

واشتغل بعد خروجه من المدرسة بالكتابة في صحف الأخبار كالأعلام
والقاهرة ، وبالتدريس لبعض أناس منهم السيد توفيق البكرى .

ولما اتصل به حسن له خلع العمامة والجبـة وإيداعها بالملايس الأفرنكية
والطربوش . ثم فارقه واستخدم كاتباً بمحكمة بنى سويف الأهلية نحو عشرة
أشهر . ثم امتحن للدخول بمدرسة دارالعلوم مدرساً للإنشاء ، فجاز قصب السبق
وعاد للمامة والجبـة . وأقام بها تسع سنين انتفع فيها الطلبة ، ونخرج عليه كثيرون
من يحسنون الكتابة الآن (١) .

ثم تقلوه بعد ذلك مدرساً للنحو بالمدارس الابتدائية في الأقاليم ، فخطوا
من درجته ، إلا أنهم أبقوا له مرتبه . وكان أخيراً بمدرسة بنى سويف ، ومرض
بها فأحيل على المعاش ، واختار السكنى بالقاهرة ، وابتنى مكاناً يعزل فيه
الخلق ويشغل بالمطالعة وإتمام بعض تأليفه ، فاختار مصر الجديدة ، واكثرى (٢)

(١) إشارة إلى عهد المؤلف العلامة المحقق أحمد نيمور (باشا) .

(٢) استأجر .

بهاداراً صغيرة أقام فيها بمفرده مع خادم "مسكين" كان يقضيه حاجاته من السوق ،
ويقوم بتنظيف المسكن ...

وكان الشيخ مريضاً بمرض يمرض عند الأطباء بتصلب الشرايين ، وهو
لا يعلم بأمره ، ولا يهتم بنفسه ، حتى اشتد عليه أخيراً وهو يظنه ضعيفاً مرتجلاً ،
ثم تركه الخادم وعاد لبلده ، فبقى وحيداً بالدار حتى أدركه أجله المهنوم فجأة ،
والأبواب مغلقة عليه ، وبقي أياماً لا يعلم به أحد ، حتى ظهرت رائحته للجيران ،
فأخبروا رجال الشرطة ، فحضروا وكسروا الأقفال ، فألفوه مائلاً في
سريره وجزء من كتاب الأغاني ملقى بجانبه ، وكان ذلك يوم الأحد ٢٨ من
المهرم سنة ١٣٢٩ هـ . وقرر الطبيب أنه مضى على وفاته ثلاثة عشر يوماً ، فنقلوه
ودفنوه ، تغمده الله برحمته .

ولم يكن اشتغاله بالعلوم على السواء ، بل كان جل اعتناؤه بمن اللغة والشعر
والنثر ، فحفظ من اللغة مقداراً وافياً من الغريب وغيره ، وكاف بتصحيح شرح
القاموس عند ضبطه برمته في المرة الثانية . وكان اشتغاله بالشعر في الأزهر
قليلاً كما قدمنا ، ولم يبرع فيه إلا عند دخوله دار العلوم طالباً ، وقد أرخ
أول إجادته فيه بقوله :

أقول الشعر عن فكر سليم

١٣٩٨

ونظم بعد ذلك القصائد المتينة والمقطعات السمينة ، وكان ينهج فيها منهج
العرب لكثرة نظره في دواوينها ، واقتناء الكثير منها استنساخاً أو نسخاً

بيده ، ولونم له الخيال الشعرى كما تمت له الديباجة وجزالة الألفاظ — لكان أشعر أهل زمانه بلا منازع .

ولما عاد الأمير محمد سامى (باشا) أشعر شعراء العصر من منفاه بسيلان ، وكان بعيد العهد بشعراء مصر ، واطلع على إنتاج الشعراء المصريين فى ذلك العهد ، لم يعجبه إلا شعر المترجم فى رصانة البناء وسلامة التركيب ، وقد ترك من التأليف : « رفع الأثام عن أسماء الضرغام » جمع فيه ما يندف على خمسمائة اسم للأسد — طبع بمصر ، و « مفتاح الأفكار فى النثر المختار » جمع فيه مختار النثر من رسائل وخطب فى الجاهلية إلى هذا العصر^(١) ، وهو كتاب جليل الفائدة — طبع بمصر أيضاً . و « مفتاح الأفكار فى الشعر المختار » جمع به مختار الشعر من الجاهلية إلى عصرنا هذا^(٢) لم يطبع ولم نطلع عليه . وله « ديوان حماسة » من شعر العرب ، استدرك به على أبى تمام ما فاته ، و « مفتاح الإنشاء » — لم يكمله . وأخذ فى أواخر أيامه فى جمع شعره ونثره وترتيبه فى ديوان ، ولا أدرى ما فعل الدهر به .

وكان رحمه الله غريب الأطوار ، سريع الغضب ، سريع الرضا ، مع صفاء الباطن ، له شذوذ فى أخلاقه يتحمله من عرفه وعاشره . أسمر اللون ، أسود اللحية والشاربين كبيرهما ، أميل إلى الطول ، له هزة وتَخَطُّر فى مشيه — لمرض كان أصابه فى ظهره ورجليه .

(١) إشارة إلى عصر المترجم — رحمه الله .
(٢) أى عصر المترجم ، وهو عصر المؤلف أيضاً .

ولما انتقل إلى مدارس الأقاليم صار يحضر إلى القاهرة في فترات ، فينزل
عندنا ^(١) ، ويجتمع به إخوانه وأصدقائه في ليال كنا نحيطها بالمطارحات
الأدبية وإنشاد الأشعار .

ومات ولم يعقب غير بنتين زوجهما في حياته . ومن شعره قوله يرثي
صديقه محمد بك بيرم ابن الشيخ بيرم التونسي ويعزى أخويه :

لقد مات في سن الثلاثين بيرم
فإن كان قول فالرثاء المقدمُ
مضى سابقاً سبق الجواد إلى المدى
ولا يدرك الغايات إلا المعلمُ
قوى كان مثل السيف يفري قرابه
ويعجب منه الناظر المتوسمُ
قوى كان في حاله للمجد كاسباً
كباد يرود العشب أو يتجرثمُ
قوى كان مثل الليث طلاع أنجد
وكالفحل يحمي شوله وهو مكرمُ
فما بال هذا الفحل تقدع أنفه
ولم ذلّ ذاك الضيغم المتأجمُ

(١) في دار العلامة المحقق أحمد نيمور (باشا) يدرب سعادة .

وقد كان يرعى عهده وجواره
فلا العهد منقوض ولا الجار مُسكَمُ
وقد كان مأوى لليتامى يظلمهم
إذا السنة الشبهاء ظلت نجمهم
وكان ذور الحاجات منه بنجوة
إذا ساقهم سيل من الذل مفعمُ
وما كان مجزاعاً إذا الخطب عضه
ولا وكلاً يفساه ما ليس يعلمُ
ولكن أخوجأش وحزم كلاهما
أبرّ من السيف الجراز وأحكم
وما الطودُ ممنوع الذرى هضباته
أنفنَ فلم يفرع فراهن أعصمُ
بنت فوقه الأسد الضواري على الطوى
زبىَ يتقبها الصاعد المتجشمُ
بأثبت ركنا منه يوم عظيمة
وأوفر حلاً والظنون ترجمُ
نسم في عقباه ممتنى وظيفة
هي القطر ينلوه من الغيث مسجمُ
وسلم تسليم البشاشة جاهلاً
قصارى المطايا أن يقيم المسلم

فما كان إلا أن أناخ ببابه
من البين ركب لا يريم مخيم
فودع قوديع امرئ غير راجع
سجيس الليالى أو يؤوب المثلّم
ليبك عليه ضارع طوحت به
يد الدهر واستهوت دهباء صيلم
يذكرنيه الخير والشر دائماً
إذا زاغ ظلام وصاح مظلم
وتعنادنى ذكراه للضيف كلما
طفت برمة أو مرجل ينهزم
فقدناه فقد الروض ماء غمامة
على ظمأ ، والقلب حراف أهيم
فهل عهد العهد الذى هو راجع
ألا إنما عهد المنايا مصرم
وهل حله يوم القيامة حله
إذا خف رضوى واستحال يللم
رمه شعوب فاتها بصره
رسم المنايا فى المقاتل محكم
فلم ينف عنه فكره وهو صارم
ولا ذاد عنه عرفه وهو عيلم

عفاء على تلك الحياة فإنها
تفارقُ نهب بين قوم يقسمُ
فلو كان رد الموت بسطاع لانبثرت
كجاة لها قرع الظنابيب مغنمُ
إذا الشر أبدى ناجذيه حسبهم
أسود شرى أظفارها لا تقلمُ
ولكنه الموتُ الزؤامُ إذا هدأ
نداعت رليأتاه زيبدته وخيممُ
مضى يرم أشلاء العشرة أغضتُ
حذام ولم يبق النطاسى حذيمُ
وليت المنايا أخطأته وصادفت
عدى ينفورت الشر إماما تيمموا
لهم سيرة في السوء شتى فعالها
ومن ذا يعانى السوء إلا المذممُ
وعما قليل بزجر الدهر طيرم
فيغدو سنيحاً وهو بالموت أشامُ
ويطوون طى الثوب أخلفه البلى
على غرة ، والدهر عرس وماتمُ
فيأراكب السوداء في البحر نرهمي
على صفحات الماء والبحر خضممُ

نمر كما مرت نجاج تصفت
رمال الفلا واليوم ضحيان يسمُ
تسير فلا تلوى على ابن طريقة
وترسو كما ذاق الفرارَ المهومُ
إذا أنت ألقيت الرحال بتونس
لدى معشر في بهرة الحى خيموا
لهم أول في السابقين وهضبة
من العز شماء الندى لائسُمُ
هنالك فانزل عَزْمُهم بمحمدٍ
وقلَّ له دمع براق معندمُ
وقلَّ غاب من ترجون فضل إياه
فليس لشيء آخر الدهر يقدمُ
هنالك تلقى الخليل حطت سروجها
وخرَّ لمنعاه البناء المهندمُ
وتلقى عنادى الحى شقت جيوبها
عليه ودقت بينها العطر منشمُ
وكنتم ثلاثاً فرق الدهر بينكمُ
كأنكم اسم فى النداء مرخمُ

نعم إن ذاك السرُّ مازال فيكما

ولا عجب فالحرف في الحرف مدغمٌ

خذا بيد الصبر الجميل فإنه

هو السيفُ لا ينبو ولا يتنلمُ

ولا تحفلا للحزب يشى ، فإنما

رسوم الأُمى قفرٌ لمن يتردّمُ

ودوما على الأيام عنوان راحل

طوته النوى طى الكتاب فيختمُ

مُحَمَّدُ أَكْمَلُ

١٢٨٠ - ١٣٤٣ هـ

هو محمد أكمل بن عبد الغنى بك فكري ابن لطف الله بن حسين الشاعر الأديب الظريف . ولد بالقاهرة ونشأ بها ، واعتنى والده بتعليمه وتهذيبه . ثم أدخله في مدة الخديو إسماعيل الديوان الخديوى لتعلم كتليد ، وكان من كبار كتاب هذا الديوان ، فجود الخط به وألم باللغة التركية . وكان له حدة بظهره شوهت خلقه ، ورأى والده الأملطع فى استخدامة بمنصب لائق لحديثه وقصر قامته ، فاستحسن له طلب العلم بالأزهر ، وكان يرجو أن يكون من كبار العلماء ، فلأزم الطلب به ، وقرأ النحو والعلوم العربية على الشيخ أحمد المنصورى ، والشيخ محمد البجيرمى ، وكان أحذب مثله ، وكثيراً ما كان يقدمه بجواره فى حلقة الدرس . ثم انقطع عن الطلب ولازم والده ، وكان والده جماعة للكتب مغالياً فى اقتنائها شراءً واستنساخاً ، ينفق عليها جل ما يصل ليد ، ويحيى الليالى فى مقابلة ما يستنسخه منها وتصحيحه وضبطه . فكان المترجم يعاونه فى ذلك ، واطلع بهذا السبب على كثير من الكتب العلمية والأدبية والدواوين الشعرية ، عاشر من كان يجتمع بوالده من العلماء والأدباء ، وتردد عليهم واستفاد منهم ، وعرف مدة طلبه بالأزهر كثيراً من أدبائه وشعرائه المجيدين - كالشيخ عبد الرحمن قراة ، والشيخ أحمد مفتاح ، وحفنى (بك)

ناصف وغيرهم ، فاستفاد منهم أيضاً . ونظم الشعر والزجل وأدوار الغناء ، واشتهر بحسن المحاضرة وملاحة التندير وسرعة الجواب وخفة الروح . وكان كثيراً ما يجعل محور تنديره دائراً على حديثه فيأتى بما يضحك الثكلى ، بل كان لا يأنف من ذكرها في شعره ، كقوله من زجل في الوباء الذى حل بمصر سنة ١٣٢٠ هـ وما فعله الأطباء من الهجوم على الدور وترويع ربات الخدور :

شاعر ونائر زجال عال فن الأدب فيه (١) لعبة
لطيف زكى وفهمه سيال ورقته من الله وهبة
مخلص لإخوانه وميال نادرة زمانه وله حديثه
ما فيه عيب ظاهر معروف قصير ولكن فيه أقصر
والى يعيش ياما يعيش والى يمشى يشوف أكثر

ومن ولوعه بمحدثه شرع فى جمع كتاب فى نوادر الحدبان وما قيل فيهم من الأشعار وتراجم مشهورهم ، أخبرنى أنه جمع منه جزءاً إلا أنه لم يتمه .

ونقل والده مدة محمد توفيق الخديو من الديوان إلى الحاكم الأهلية قاضياً وتوفى يوم الثلاثاء ٢٩ المحرم سنة ١٣٠٧ هـ وخلف له وإخوته ضيعة بالصعيد ، أصاب المترجم منها (٦٠ ستون فداناً) باعها وبدد ثمنها بالإسراف ، حتى احتاج للاستخدام بديوان الأوقاف ، بمرتب قليل دون الكفاف ، وعاش فى ضيق ومضى بعد ماتعوده من السعة والرفاهية . وأخذ يتقرب للخديو بنظم التواريخ فى كل عيد واحتفال ، وحل وترحال ، وينشرها فى صحف الأخبار رجاء أن تبلغه

فيأخذ بيده ، فلم يستفد شيئاً وراح تغزله في الريح . وكان قصر شعره في أواخر عمره على هذه التواريج ، فنظم منها الغث والسمين . وكنا إذا قرب عيد أوسفر أو قدوم للخديو لانتفع به لاشتغاله بالنظم والحساب وإعمال الروية ، فيصير هذا ديدنه في غدوه ورواحه وقيامه وقعوده ، حتى يمن الله عليه بشيء يرتضيه .

وترك له والده غير الضيعة داراً بسوق الزلط بيعت أيضاً ، وترك خزانة كتب كبيرة قل أن تضارعها خزانة في نفائس الكتب ونوادير الأسفار ، وهي التي أفقى عمره وماله في جمعها وأتعب نفسه في تصحيحها وضبطها وصبغ الورق وصقله لنسخ ما كان يستنسخه منها ، فوق ما كان يتكلفه من السعي في البحث عنها في الخزائن المهجورة وعند الوراقين ، واتخذ له في داره مصنعاً للتجليد واستخدم عدة نساخ أجرى عليهم المرتبات ، فاخصوا بالنسخ له لا يشتغلون لسواه . . . وكان هو وعبد الحميد (بك) نافع من أدباء القرن الثالث عشر يتباريان في ذلك ويتسابقان . أخبرني المترجم عن والده أنه بلغه أن تاجراً من الوراقين قدم من سفر بكتب أوصاه عبد الحميد (بك) نافع بجلبها له وبينها ديوان البحتري ، وكان إذ ذاك لم يطبع بل لا يعرف في مصر إلا باسمه ، فأسرع إليه وبذل له مالا فوق قيمة الديوان . على أن يعبره له يوماً وليلة فقط يطالع فيه ، فرضى وأعاره إياه . فلما أتى به لداره أعطاه لمجلده ففك له تجليده ، وأحضر في الحال عدة نساخ فرقه عليهم كرايس فنسخوه وقابلوه ، ولم يمض اليوم والليلة إلا وقد ردت النسخة الأصلية لصاحبها مجلدة كما كانت . ثم قابله بعد ذلك عبد الحميد (بك) وأخذ يفارخه بوجود الديوان عنده واختصاصه به ، فقال

له : خَفَضَ عليك يا أخى، هذا شيء أكلنا عليه وشربنا حتى مججناه . ثم أخرج له نسخة الديوان من الخزنة !

وبلغه مرة وهو يسمر مع بعض أصحابه أن بعضهم رأى عند فلان الوراق رسالة من الرسائل ، وكان هو يتطلبها من زمن وينشدها فلا يجدها ، فلم يسمعه إلا أن قام في الحال وأخذ يسأل عن دار الوراق من هنا وهناك ، حتى اهتدى إليها بعد ما مضى هزيع من الليل ، فأيقظه من نومه وسأله في الرسالة بقيمة فوق قيمتها ، ولم يمهله للصباح ، بل أنزله من الدار وذهب معه إلى حانوته ، ففتحه ليلاً وأخرجها له ، ولم يهدأ له بال حتى باتت الرسالة عنده .

فلما مات عرض المترجم كتبه للبيع فبيعت وتفرقت ، واقتنى نفائسها ونوادرها الكونت لندبرج قنصل السويد بمصر . وكان من مستعربي الأفرنج المولعين بجمع الكتب العربية ، وأدركت أنا^(١) أواخرها - فاقنيت منها بضعة عشر كتاباً ، منها ماهو بخط عبد الغنى (بك) نفسه ، وبمواشها آثار التصحيح واختلاف النسخ التي كان يقابلها بها .

وكان أول التقائى بالمترجم في دار ابن أخى محمود توفيق (بك) وهى إذ ذاك مجمع الأدباء ومحط رجال الفضلاء ، فلما رأيته استغربت شكله واستملمحت محاضرتة . ثم رأيته يناقش الأدباء ويطارحهم الشعر ، فدنوت منه وكنت صغيراً في أول الطلب ، وقد تعذر على فهم باب أفضل التفضيل وأجهدت نفسى في درسين

(١) إشارة إلى المغفور له العلامة أحمد نيور باشا — رحمه الله .

متواليين على تفهمه فلم يفتح على بشيء فيه ، فسأله عنه فأوضحه لى بعبارة سهلت على فهمه ، فكان بعد ذلك كثيراً ما يقول لى مازحاً : إذا ذكرت شيوخك فاذكرنى معهم ولا تنسى !

ثم تأهل بينت حنفى (بك) وكان لأسرتها نوع اتصال بنا ، فانصلت المودة بينى وبينه بهذا السبب ، وازدادت ملازمته لى لما سكن بجوارنا ، فكان يزورنى عصر كل يوم ، ويبقى حتى نسمر معاً ثم ينصرف . فتارة كنا نجيئ الليالى بمسامرات أدبية ومذاكرات علمية أو بمطالعة بعض الكتب . وتارة بمقابلة ما كنت أستنسخه وتصحيحه . وكان لا يمل من المقابلة مهما يطل الوقت فيها ويقول : هذا شيء دربنى عليه والدى وعودنى إياه من الصغر .

وأشار على مرة أستاذنا العلامة محمد محمود الشنقيطى أن أطلع « أمالى أبى على القالى » مطالعة إمعان وتدبر ، ولم تكن طبعت بعد ، فاستنسخت منها كرايس عكفت على مطالعتها . وأخبرت المترجم أننى سأحتجب عن الناس بضعة أيام حتى أستوفى ما بهذه الكرايس ، فغاب عنى ثلاثة أيام ، ثم حضر ومعه هذا الزجل ينحى فيه على الأستاذ وعلى أبى على القالى اللذين تسببا فى انقطاعى عن الإخوان ، ويذكر فيه بعض من كان يجتمع بنا :

المذهب

مشتاق قوى ليدى السحنة دى مودتاك حيطى ميطى
أبو على كان لك ميمنه الله يجازى الشنقيطى

دور

یا سید احمد یاتیموز یالی مانعنا من أنسک
هو و دادک من بنوز حق کسرتہ من نفسک
أهدیک سلام یسحن و ابوز یقطع محطات علی حسک
هو الکتاب ده م الجنة ولا کلام المجریطی
أبو علی کان لک محنه الله یجازی الش — نقیطی

دور

یکره یحینا الشیخ مفتاح یحلی السهر فی القماری
نفضل ندرش للإصباح والشیخ بروحه موش داری
عبیط خفیف عالم فلاح یجوز شوارب هواری
أوقات کده یسقی زنه وأوقات تشوفه ره ریطی
أبو علی کان لک محنه الله یجازی الش — نقیطی

دور

إذا مشی تلقاه یجری راخی تملی کیعانه
م الکهر با تشوفه دغری ریح و طرطق اودانه
وإذا اشتری حاجه یوری جمیع ماجابه لإخوانه
وتبقى زیطه لها رنه وآحوال معیشته رطریطی
أبو علی کان لک محنه الله یجازی الش — نقیطی

دور

عبد الملق راجل زندیق وابنه صبح منه مخلول
والبابی لآخر بالتحقیق جاهل ثقیل دینه محلول

ومذهبه مذهب تلفيق كله خراف من غير معقول
لا فرض عنده ولا سنة دة دين إباحي شليطي
أبو علي كان لك محنة الله يجازي الشنقيطي

دور

أما القدوري بنياته أفغاني لسن يتدحج
غريب في شكله وصفاته نادر في بابه متلحج
يبدى ملاح للورنه أو الزغاليل الغيطي
أبو علي كان لك محنة الله يجازي الشنقيطي

دور

أما الدميري القلماوي تبس تركي أبيض وبلحيه
وأبو فصاده الشناوي أخرج ملوى كالحيه
بدقن بيضا حلفاوي وزعيق يطل على ميه
غبي وسخ كالشيخ منه فكره قذاره مخيطي
أبو علي كان لك محنة الله يجازي الشنقيطي

دور

أهل الأدب ماتوا بحسره رم إلى شفو في دي الأيام
الناس بقت بينهم نفره والمسلمين صارت أخصام
وكل يوم تلقى نشره تملا قلوب الناس أوهم
بيقفشو لهم على لحنه بالوم عابشين سلبيطي
أبو علي كان لك محنة الله يجازي الشنقيطي

دور الاستغفار

يارب انا مذنب عاصي محتاج لغفوك والغفران
من العذاب أرجو خلاصى ودخولى فى جنة عدنان
أنا نحيف موش جماصى مليش نجلد ع النيران
عفو الكريم أعظم منه على عبيده الحفليطى
أبو على كان لك محنه الله يجازى الشــــــــــــــــنقيطى

دور الحتام

يا اهل الأذب راجى منكم غض العيون عن زلاتى
فن الزجل يروى عنكم أما أنا موش أدبانى
الله يخلصلى أفضالكم وانول ســــــــــــــــمودى لمانى
وأبقى كيدى ف طنه وشنه وافر ح وترقع زغاريطى
أبو على كان لك محنه الله يجازى الشــــــــــــــــنقيطى

وإنما يظهر حسن هذا الزجل لمن يعرف المذكورين فيه ، فيطبق ما ذكره
عنهم على هيتاتهم وأحوالهم، ومراده بالقدرى والدميرى شخصان كان يلقبهما
بهذين اللقبين ، والسبب فى ذلك أننى أطلعت على رسالة هندى جمعها الشيخ
أحمد الفجاوى صاحب الخط الحسن المشهور بكتابة لزوم ما لا يلزم للعمرى
وسماها (بنات أفكاره ، وعرائس أبكاره) فى ألقاب أهل العصر ، ذكر بها كنى
وألقاباً وضعها لفضلاء أواخر القرن الثالث عشر عبد الحميد بك نافع وإبراهيم

أفندى طاهر الشاعر الرقيق المشهور على سبيل المزاح والدعابة ، فلقبها كل واحد بلقب شاعر متقدم أو رجل مشهور يوافق اسمه هيئة الملقب به أو شيئاً يغلب على أخلاقه وأحواله ، كتلقيبهما مصطفى أفندى المنعوت بكامل بالعكوك لأنه كان قصيراً جداً معوج القدمين ، وتلقيبهما الشيخ محمد الرافعي الكبير شيخ رواق الشاميين بالأزهر وأحد كبار علمائه بـ «ملاك مسكين» لأنه كان نحيفاً وبقوامه بعض احديداب يرى كأنه تواضع وانكسار ، وتلقيبهما عبد الغنى (بك) أبا المترجم بالأخطل لأنه كان ضخماً الجسم ، كبير الهامة .

فلما اطلع المترجم عليها جن بها جنوناً ، وشرع في وضع رسالة تماثلها في فضلاء عصره ، وسألني مشاركته فيها كما فعل ذاك الأديبان ، فامتنعت خشية اللوم ، فأنفرد هو بتأليفها ، وأتى فيها بنرائب ذهب أغلبها عن الذهن لطول العهد ، فمن ذلك — تلقيبه للعالم الفاضل على رفاة (باشا) ابن رفاة (بك) المشهور : بابن المقفع لنحافته ودخول شذقيه ، وتلقيبه للعالم الفاضل بحمي أفندى الأفغانى : بالقدرى لغرابه شكله وقصر ساقيه تشبيهاً له بالقدر من الفخار ، والقدرى اسم عالم من الحنفية مشهور . وكان الشيخ محمد الحنفى المهدي ابن أخى مفتي مصر الشيخ العباسي المهدي ولماً يذم الناس ، منقبا عن معاييرهم ، لهجاً بها في المجالس ، لم يسلم منه أحد حتى عمه ، واشتهر بذلك حتى أبفضه عارفوه ، ونحاموا عن الاجتماع به — فلقبه : بابن هرمة ، وهى كلمة سب عند العامة ، فقلت له : هذا لا يستقيم لك ، لأن ابن هرمة الشاعر بنتح أوله ، فتأنف وقال : لا أجد له لقباً ينطبق عليه غير هذا ، فدعنى من شغيطيتك .

ثم لما فرغ منها سأله عما لقب به نفسه ؟ ففكر وقال : أحسن لقب ينزل
على : ابن قتيبة ، ثم تركه وتلقب : بالمقوقس ، وضاعت هذه الرسالة فيما ضاع
من أوراقه وأشعاره ، ويغلب على الظن أنه مزقها لأنه وقع له بسببها نفور بينه
وبين بعض من لقبهم ، فإنه لما لقب صاحبنا وصاحبه الشيخ أحمد مفتاح لسلامة
طوبته : بالأبله البغدادي ، غضب منه وكاد يتغافم الشر بينهما ، وغضب منه
صاحب آخر كان قصيراً متملئاً يتدحرج في مثبته كما يتدحرج البط ، لأنه لقبه
بإبن بطوطة . فأخفى الرسالة لهذا السبب وطوى ذكرها .

وكان رحمه الله مجيداً في الزجل ، متقناً لصياغة الأديان التي يتغنى بها ،
وأكثر ما كان متداولاً منها بين المغنين في عصره كان من نظمه ، وأما شعره
فالإجادة فيه قليلة ، إلا ماضيه النكت والتندبرات العامية . فن أحسن
ما وقفت عليه منه قوله من مرثية في صاحبه على رقاعة (باشا) :

جزعت وللحر أن يجزعا
وودعت صبرى إذ ودعا
وجادت عيوني على بخلها
وحق لها اليوم أن تدما
وروع قلبي النوى بعدما
أمنت ومثلى كم روعا
لما الله يوماً أشاعوا به
وقالوا أمير العلا شيعا
فما كان أصعب تأيينه
وما كان أسوأ موقعا

وما كان حتى البكاء ولكن
فزعت ولا بدع أن أفرها
نجمت من هوله كل صاب
وغيرى من الناس كم جوعا
ومادار في خـلدى أنى
أرى البدر برضى الثرى مضجعا
ولكن شأن الزمان عجيب
فما كان أضيع همداء رعى
يقول النبی : على قضی
ولم يدرك أن الملا قد نى
نى سيداً صيته طائر
حوى الفضل فى شخصه أجمعا
فدكت رواسى الدنى بعده
وماد الزمان بما أودها
وغابت شمس المعارف لما
ذوى غصنه بعد ما أينما
فقل للخطابة ذوبى أسى
ولا تطلبي بعده مصقعا

وقل للكتابة : لا تحفل

بمن ينبجح في المنع

وقل للعلوم : فقت أميراً

مضى تاركاً فضله مشرعا

وقال مورياً باسم الطيب سعد (بك) ساح :

يا سعد مالك ممرضاً

عنى وقلبي فيك طامع

إني أتيتك قائلاً

أنا تائب يا سعد ساح

وقال مورياً باسم محمد ثابت :

إن كنت في ريب بصدق محبتي

وسمعت عني ما تقول شامت

فاعلم فديتك دائماً أنى على

عهد المحبة يا محمد ثابت

ولما مرضت شقيقى السيدة عائشة النيمورية وأحست بدنو الأجل، نظمت

في مرضها أبياتاً لتكسب على قبرها ، وتركت مصراع التاريخ لمن ينظمه

بعدها ، وهى :

قد كنت عائشة فنوديت ارجى
للقبر مأوى كل حي فان
فأيت صفر الكف عن مرضاته
ومقرة بالمجزر والعصيان
جردت من ثوب الهدى لكن لى
تاجاً من الإسلام والإيمان
ونزلته مستشفعاً به
وتوسلى عفواً من الرحمن
أصبحت ممن زار الهدى راجياً
خير الدعاء وتلاوة القرآن
لكم البقا إخوان ديني أرخوا

فنظم المترجم التاريخ بقوله : (قبر لعائشة سما بجنان)

١٠٦ ١٠١ ٨١١ ٣٠٢

١٣٢٠

وله عجائب مما ذهب عن الذهن الآن . ولكثرة ممارسته للتواريخ الشعرية
كان يأتى فيها أحياناً بفرائب فى إبراز المقصود بدون حشو ، كقوله فى تاريخ
ولادة ولده عبد الغنى : (عبد الغنى بن أكل) .

ولم يشتهر والده عبد الغنى (بك) بعلم ، بل كان بارعاً فى الكتابة التركية
والعربية فقط ، وكان يقرض الشعر أحياناً . فن ذلك قوله هاجياً الشيخ مصطفى

قشيشة ، مدعيا أنه لم يرد إليه كنباً استعارها منه ، وكان الرجل من الفضلاء ،
وكانت له زربية لتربية البقر يسكب منها ببيع اللبن ، فقال فيه :

شيخ — وه بفعله المنكور أنسى مَعْنَاً بحله المشهور
عام — ل الناس بازدياد دهاء زاد في الوقوع نغمة الطنبور
واستمال البسيط من لم يطالع من خداع القصير في المسطور
أشمل الذهن في اللآمة حتى أورث الصهر أسوأ المقذور
قل ما يلحظ الصحيح بعين غير خلط المنظوم بالمتنور
صار دهرآ بصحبتى مستفيدآ وفر مال من كثرى الموفور
واقنداء بحبك الشيء يعنى كان ما صار من خطا المشعور
وتمادى الضلال بضع سنين نال منها ماليس بالمحصور
واحتدام الخصاص نكران كتب شد فيها عن نهجها المبرور
واتنى الآن منكرآ مستغنياً كافرآ لعمق لدى الجمهور
جعل الله عسره مستديماً وثواه الإله في التنبور
وقال فيه أيضاً :

تشرب الخمر للتداوى احتيالا لاشفى الله منك للجسم عله
دمت في منقـع الزربية روثآ بك يشتم في الخياشيم جـله
والجلة عند العامة هي روث البقر ، ولا يخفى ما في القصيدة من الضرورات ،
كقوله «أنسى» ولا يستقيم الوزن إلا بحذف الياء ، وقوله وتمادى الضلال فعداه
وهو لازم . وغير ذلك .

فلما اطلع الشيخ مصطفى على القصيدة والبيتين طلب من صديقنا الشيخ
أحمد مفتاح أن يجيبه على لسانه — فنظم قصيدة وبيتين من البحر والقافية
في ٢٤ ذى الحجة سنة ١٣٠٤ ، فقال :

لهوى النفس في اقتحام الأمور
حكمة تستفز اب الخبير
كل داء يبرا ولو بعد حين
غير داء الهوى وداء الغرور
قف قليلا وأمعن الفكر فيما
أظهرته الغيوب كل الظهور
ظن بعض الرعاع والظن إثم
يورد النفس أسوأ المقدور
أن سيفي لدى الهجاء كهام
وقناني تلين في كف زور
فتعاضى وجم من فيه روئآ
وقبيح بالسر خبث الضمير
يشير بهذا البيت إلى قول عبد الغنى بك : دمت في منقع الخ ..
عشت معه على الضغائن سرا
لا أرى منه غير نذل فخور
فانتقى لى بعد انتقالى سـطورا
هو أولى بلفظها المهجور

ظنها الشعر ضالة ليس يدري
أن دون القريض خوض البحور
إن « عبد الغنى » عبـد جهول
ليس يدري قبيله من دبير
فيه ماشئت قلاء غـير مبال
من ضلال وخدعة وفجور
عرفته الإخوان بالخفض حتى
مـيزته بالخفض والتنكير
فاتقوه وأخبث الناس طرأ
رجلٌ تنقيه خوف الشرور
ورماني زوراً بنكرات كتب
وبكسي من وفره الموفور
أى وفر أفاد أم أى كتب
تُبغى من لدن لثيم حـير
حمل الكتب لا لعلم ولكن
لترى الناس أنه كالحـير
واتمى للثقات فى العـلم حتى
أوم الناس أنه ابن كثير

يا عديم الزمام في كل أمر
وقليل الرجاء للمستجير
هاك مني عديمة المثل أنحت
بمسار على عديم النظير
وقال :

إن عبد الغنى عبد فقير
لم ير الناس في السفاهة مثله
جمع الدهر فيه ضدين حتى
أبرزته العيون للخلق مُشَلَّه
رحم الله الجميع ، وتقدم بمفوه وغفرانه .

مُحَمَّدُ الْإِدْرِيسِيُّ

١٢٩٣ - ١٣٦٤ هـ

هو الإمام السيد محمد بن علي بن محمد بن أحمد بن إدريس . ولد في صيبا سنة ١٢٩٣ هـ وتلقى العلوم الدينية بمسجد جده بها ، ثم أتى مصر سنة ١٣١٤ وأخذ العلوم الدينية والعربية في الأزهر الشريف . وكان أيام تحصيله مكبا على الاجتهاد ، مواظبا على الحضور في حلقات التدريس لدى مشاهير العلماء .

وفي سنة ١٣١٧ هـ زار السيد محمد الهدى السنوسي بالكفرة عن طريق الجغبوب ، ثم عاد إلى الأزهر الشريف فبقي إلى أواخر سنة ١٣٢١ هـ .

وبعد إتمام التحصيل ، توجه إلى دنقله ، وزار قبر عمه سيدي السيد عبد المال الإدريسي ، وبقي هناك مدة . ثم عاد إلى صيبا ، ووصل إليها سنة ١٣٢٣ هـ الموافقة سنة ١٩٠٥ م . فوجد كثيراً من أتباعه وأتباع أبيه وجده متعاشين لطريق يبينه لهم ويسلكونه ، فشرع يبين لهم ما هو الأصلح لدينهم ودينهم ، وأرشدهم الإرشاد الذي يستنيرون به ، وصار يهد لهم طرق العدالة والوقوف على حد أحكام الشرع الشريف .

وكان جميع الذين حوله وبمض البعידين عنه والسامعون بحسن سيرته وعظيم محبه يقصدون إليه للتلقى عنه ، والسير على طريقته المحمودة ، ولم يلبث قليلا حتى وجد أتباعاً وأنصاراً يقولون بقوله ، ويعملون بعمله ، ويسلكون

محمد سيرة ، ومحاسن أمره . وهناك قام الأمير الخطير سيدي السيد محمد بن علي الإدريسي بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حسب ما كان عليه آباؤه وأجداده الطيبون الكرام ، فصار حينئذ لدعوته وقع عظيم في نفوس أهالي تلك الأنحاء ، وهو لا يجيد عن الشرع الشريف قيد شعرة . وبينما كان على هذه الحالة التي استحسنتها منه كل من شاهد أعماله وسمع بها ، إذ ظهر أناس يناقشونه في أعماله الحسنة ، حسداً أو من باب جهل حقيقة حاله . ولا يخفى على أحد أن من سلك مثل هذا الطريق لابد أن يكون له من يعارضه ، فكانت نتيجة تلك المعارضة وقوع التنافس المؤدى إلى حروب نشأت في الحقيقة عن سوء التفاهم .

ولما رأى الأمير وأنصاره حرج الموقف ، التزموا طرق المدافعة المطالبة شرعاً .

ولما كتب له النفوق بكثرة الأتباع ومزبد المحبة والسير الحكيم حفظ المركز الذي وفقه الله إليه . وفي تلك الأيام وقعت الهدنة ، وأمرت الحكومة العثمانية بسحب جيوشها من عسير وتهامة اليمن وتسليم جميع المهمات الحربية إلى الأمير السيد محمد بن علي الإدريسي . وبمقتضى الأمر سلم القواد كل ذلك إليه ، وخرجوا وهم شاكرون فضله ، مقدرون حسن إنعامه ومكانته الدينية .

وبعد ذلك مال جميع أهالي عسير وتهامة اليمن إليه ، وأصبح بعد ذلك قائماً بتدبير شئونهم ولم شعثهم ، والمحافظة عليهم ، وسعى السعي الخيث

لتأمين الطرق ، حتى أصبح الإنسان يسافر في أى جهة شاء بكمال الطمأنينة ولا يتعرض له أحد في أثناء الطريق ، وضرب على أيدي المجرمين والساعين للفساد ، حتى استتب الأمن كما ينبغي سنة ١٣٤١ هـ

وهو — على جلالة علمه وعظيم قدره ونخامة مكانته — متواضع زاهد ، متمسك بالتقوى .

وقد درج منذ نشأته على حب العلم والأدب وأهلها ، وكره الظلم والاستبداد . وأعطاه الله من شدة الذكاء وكرم الخلال وعزة النفس والغيرة على الدين والوطن ، بقدر حسن سيرته ، ونقاء سريرته ، وحب للناس ، وبخاصة الصالحون .

ولقد كان والده سيدى السيد على الإدريسي صالحاً تقياً محبوباً . وأقام بصيبا بعد وفاة والده السيد محمد الإدريسي الذى كان معدوداً من أكابر الأولياء ، وتوفى بصيبا سنة ١٣٢٤ هـ وقد صدق فيهم قول القائل :

إِن لِّلّٰهِ رَجَالًا فَطُنًا طَلَقُوا الدُّنْيَا وَخَافُوا الْفِتْنَا

وكان من صفوة العلماء الذين يشار إليهم بالبنان في مجالس العلم والتدريس . ولم يزل متعبداً حتى إنه — بعد وفاة والده — انتقل من صيبا إلى الحديدة ، وهى أكبر موانئ اليمن ، وأقام في خلوته الخاصة أربعين سنة لم يخرج منها ، ثم أمر أن يحمل إلى صيبا ، فكث فيها أربعة أيام ، وتوفى إلى رحمة الله ورضوانه ودفن بجوار والده سيدى السيد أحمد بن إدريس .

أما أبو جده فهو سيدى السيد أحمد بن إدريس الحسنى لسبباً ، من ذرية الإمام إدريس بن عبد الله من السادة الإدريسية ملوك المغرب ، وقد ذكر من تراجمهم فى « الاستقصا فى تاريخ المغرب الأقصى » ما يتنى المطلع عليه

ولد رضى الله عنه ببيلة « ميسور » بالقرب من مدينة فاس ، سنة ١١٧١ هـ . وقبيلته « العرايش » واشتغل من أول عمره بتحصيل العلوم الدينية ، إلى أن برع فيها ، وصار فى شبابه إماماً فى جميع العلوم ، وأذن له فى التدريس ، وحضر درسه أكابر علماء ذلك العهد .

ثم توجه رضى الله عنه سنة ١٢١٣ هـ إلى بلاد المشرق ، قاصداً مكة المشرفة ، بطريق مصر ، ووصل إلى مكة سنة ١٢١٤ هـ ، ومكث بها نحواً من ثلاثين عاماً ، ذهب فى خلالها مرة إلى الصعيد .

وفى عام ١٢٤٤ هـ توجه إلى اليمن ومكث مدة بمدينة زبير وغيرها . ثم أقام بمدينة صيبا ومكث فيها نحواً من تسع سنين ، وتوفى بها إلى رحمة الله ورضوانه عام ١٢٥٣ هـ وله بها مقام شريف يزار من جميع أنحاء اليمن وغيرها .

وكان رضى الله عنه جامعاً بين فنون العلوم الدينية ، وله اليد الطولى فيها والشهرة الثابتة وأذعن لفضله الخالص والعام ، وأخذ عنه العلماء الأعلام والجهابذة الكرام ، ومنهم مفتى الأنام وشيخ الإسلام ، العلامة المحقق ، والمحدث البارع المدقق ، سيدى السيد عبد الرحمن بن سليمان الأهدل ، مفتى زبيد فى ذلك العصر . وعلامة وقته من الفحول ، الجامع بين علمى المعقول والمنقول سيدى السيد محمد بن على السنوسى الحسنى شيخ الطريقة السنوسية المدفون

بالجذب من أعمال طرابلس الغرب . ومنهم العلامة الإمام العارف بالله تعالى
مربي المريدين ، الشريف الحسيني سيدي السيد محمد عثمان الميرغني شيخ
الطريقة الميرغنية المدفون بمكة المكرمة ، ومنهم العارف بالله تعالى صاحب
الكرامات سيدي الشيخ إبراهيم الرشيدى شيخ طريقة الرشيدية الأحمدية
المدفون بمكة المشرفة .

ومنهم العارف بالله تعالى الشيخ محمد المجدوب السواكنى ، من أولياء
السودان ، المدفون بها .

ومنهم المحدث شيخ علماء وقته بالمدينة المنورة الشيخ محمد عابد السندى -
صاحب الثبت فى الأسانيد .

وكان للسيد أحمد بن إدريس رضى الله عنه غير من ذكر من الخلفاء
والأتباع مالا يدخل تحت حصر .

وبهذا يعلم جيدا طيب المنصر الباهر ، ومالآبائه وأجداده من الفخر
والفضل الظاهر . ولاشك أنه إذا طاب أصل المرء طابت فروعه — ولاغرو
فقد جمع الله لسيدى الأمير السيد محمد بن على الأدريسى أمير هسبر ونهامة
البحرين ، بين سعادتى الدنيا والآخرة .

عبد الحميد نافع

هو عبد الحميد نافع (بك) .

كان والده خليل أفندي من كبار الأثرياء بالقاهرة ، وكان له قصر كبير في شبرا نحييط به حديقة فيحاء كبيرة .

وقد نشأ المترجم له في القاهرة ، وشغف وهو فتى بالأدب ، وأكثر من الاجتماع بشيوخه ، وتلقى منهم الكثير المفيد . وحجب إليه اقتناء نفائس الكتب والمغالات بها ، فجمع خزانة عظيمة منها شراء واستنساخاً . وكان يعتمد على الشيخ نصر الهوريني — في مقابلتها وتصحيحها . وكانت له مع المغالين بالكتب من فضلاء عصره نوادر وغرائب في التسابق لاقتنائها ، وسمع به الوراقون فحملوها إليه من الآفاق ، وهو يسخر عليهم ، ولا يماكس في الأمان ، حتى صارت خزانة كتبه يضرب بها المثل . وكان يجاريه في ذلك عبد الغنى فكرى (بك) ولا يكاد يلحقه مع اشتهاره بالمغالات بها . ثم اشتغل المترجم بالموسيقى ، وألف فيها رسالة ، وأتقن العزف على القانون ، وأكثر من المطالعة في كتب الأدب ودواوين الشعر ، ومن مطارحة الأدياء ومناظرهم . حتى صارت له ملكة أدبية يعتد بها ، وصارت داره مجتمع الفضلاء وشيوخ الوقت وأدبائه ، فكانوا يجتمعون عنده في الغالب كل ليلة جمعة ، فيجرب بينهم من المطارحات الشعرية والمناظرات العلمية ما ينشرح له الخاطر .

واثتلف المترجم بصاحبه وصديقه إبراهيم أفندى طاهر أحد الشعراء
المجيدين ، فعاشا ألبنى وفاء ونديمى صفاء ، حتى فرق الموت بينهما . وقد قام بهما
أن يلقبا من كان يجتمع بهما من الفضلاء بألقاب قدبمة لأعيان وشعراء
مشهورين ، مع مراعاة مطابقة اللقب لهيئة الملقب به أو أخلاقه ، وقد جمع فى
ذلك الشيخ أحمد الفجاوى رسالة كبيرة كثيرة الطرف .

وللمترجم من المؤلفات عدا رسالة الموسيقى : « تاريخ أعيان القرن
الثالث عشر وبعض الثانى عشر » بيع لما بيعت كتبه . وهو موجود الآن فى
« ليدن » بهولندة . كما جمع المترجم ديوان صاحبه صفوت أفندى
الساعافى مختصرا .

ولم يطل به العمر ، إذ مات شاباً فى مدة حكم سعيد . وبعد وفاته ، استولى
محمد عارف (باشا) زوج أخته على كتبه ، فكانت له مادة ثمينة فى الكتب
التي طبعها بجمعية المعارف ، ثم تشتت وبيعت .

أُحْمَدُ خَيْرِي

كان أحمد خيرى باشا جركسى الأصل ، إلا أنه لم يكن رقيقاً ، بل حضر مع والده من بلاده لمصر لتلقى العلم ، فنزلاً فى زاوية بأول عطفة عبد الله من جهة سوق السلاح . وكان بها نفر من مجاورى الأتراك ، وواظب على الطلب بالأزهر ، فقرأ على الشيوخ ، وساعده ذكاؤه على التحصيل ، حتى صار مقرئاً للشيخ المنصورى الحنفى الضرير . ثم حضر المطول على الشيخ العلامة إبراهيم السقاء لما قرأه أول مرة . وكان ممن يحضر معه الشيخ محمد الإنبائى الشهير وإخوانه ، فكان الشيخ كلما مرت بهم كلمة فارسية فى المطول سأل المترجم عن معناها فيفسرها ، وكان زيه إذ ذاك - زى أهل العلم من الأتراك - الجبة والقفطان ، إلا أنه كان يعم بشقة من الحرير الملون المسماة بالكوفية . ثم اتصل بأولاد أحمد باشا يكن ابن أخت محمد على باشا ، وهما منصور وداود ، فجعل معلماً لهما ، ومن هناك اتصل بمحاشية والى مصر عباس باشا ، فجعل فى آخر مدته كاتباً بديوانه ، فقير زيه وصار من الأفندية ، ولما تولى سعيد باشا عرف فضله وقدره ، فجعله معلماً لولده طوسون باشا ، وأخذ بعد ذلك فى الترقى .

وفى ولاية إسماعيل باشا جعل من كبار كتاب المعية الخ . . وكان وقوراً كثير السكوت لا ينطق العوراء . انتقد مرة ، 'مكتابة كتبها بالتركية محمد عارف باشا الشهير رئيس جمعية المعارف التى طبعت الكتب بمصر . ثم اجتمع به فى بعض المجالس ، فأخذ عارف باشا يقرعه ويسبه من غير ذكر

اسمه ، بل قال : بلغنى أن أحد من تخرج من إسطنبول الأزهر انتقد كتابى .
ثم أخذ فى سبه وبالع ، والمترجم ساكت لا يتكلم .

فلما اقترقا لاهمه بعض أصحابه على السكوت ، مع أن التعريض كاد يكون
تصريحاً . فقال : رجل سفيه رأيت مداراته ، والإغضاء عنه أولى بى .

ومازال أحمد خيرى باشا فى مدة إسماعيل الخديو فى منصبه (مكتوبجى)
أى كاتب السر الخاص ، ثم ترقى إلى أن صار مهر داراً ، وبعد الاحتلال قتل من
المهر دار إلى رئاسة الديوان .

ولم يخل من قول بعض أدعياء الانتقاد : إنه لما تولى المناصب الكبيرة
أخذته شىء من أجهنما ، حتى قيل إنه إذا أراد أن يشير بالسلام على أحد لا يرفع
يده إلا قليلاً . وهذه حالة ليست ذات أهمية ، أمام ما سبق ذكره من مداراته
وإغضاءه عن تعرض له بالسب وبالع فيه . . . رحمه الله .

ابراهيم باشا

جاء كبيراً مع والده من بلده ، وأمه هي أم طوسون وإسماعيل وزهرة وناظله ، وكانت أشرف بيتنا من بيت محمد علي ، وتزوجت قبله بأحد أبناء الكبار ثم نشزت منه فطلقها وغضب أهلها وأقسموا ألا يزوجوها إلا بشخص من محط عن مرتبتها ، فتزوجها محمد علي . ومن يريد الطعن في نسب إبراهيم يقول إنها تزوجت محمد علي وهي حامل من زوجها الأول ، فولدت إبراهيم على فراشه ، فهو ليس بولده ، وهو قول لم يثبت . وبسبب شرف بيتها كانت تتعاضم على محمد علي ، وهو يحتمل لها ، حتى لما قتل ولدها إسماعيل بالسودان ، وبلغها الخبير ، دخلت على محمد علي ورمت طربوشه من رأسه ، وأخذت بلحيته وهي تبكي وتصرخ وتقول : من أحل لك الرمي بأولادي إلى تلك المجاهل وقتلهم ؟ وهو لا يزيد على البكاء ويقول لها : أمر الله ، أمر الله . ولما ماتت قال : الآن صرت والى مصر ، لأنها كانت تتحكم فيه وفي أموره .

وكان إبراهيم باشا معتلا في أواخر مدة والده ، وكان يسكن بقصر القبة ، فذهب والده مرة لزيارته هناك ومعه سليم^(١) أغا السلحدار ، فقال له في أثناء الطريق : لقد طال اعتلال إبراهيم ، فلا هو في حال يرجى معها ، ولا يموت فيستريح ويريحنا . فأبلغها السلحدار لإبراهيم .

(١) لعله : سليمان أغا السلحدار .

فلما قابل والده مرة أخرى فاقحه في ذلك ، وقال : ما هو ثقل عليكم حتى
تتمنوا موتى ؟

فامتعض محمد علي ، وصار يحلف له أن مبلغه كذاب . ولم يزل إبراهيم معتلا
حتى لما تولى وذهب لاستنبول كانوا يرون في القارورة التي ينقل بها بصلاته
ممرقا بالدم . ولما تولى انتقل إلى القلعة وسكن بها ، وأحضروا له جنداً من الحرس
كالعادة . فقال : لا حاجة لي بالحرس ، فقد شهدت عدة حروب^(١) ، ولم يكن لي
حرس . ومات بالقلعة ، ونزلوا بجنازته ودفنوه في مقبرتهم التي بجوار الإمام
الشافعي . وكان عندهم بين مملى القصر العالى رجل فارسى اسمه منجلاخ
خطاط مشهور ، فناطوا به كتابة الكتابات على تربته ، واهتنوا بها كثيراً ،
فيقال : إنها كلفتهم نحو ثلاثين ألف دينار . ولما تمت أعطاه أولاده الثلاثة ،
أحمد رفعت وإسماعيل ومصطفى ، كل واحد مائة كيس كالجائزة ، فلم ترضه ،
وسافر لبلاده فات بها .

(١) بحدثنا التاريخ عن حروب إبراهيم باشا وفتوحاته ، وما كان يلجأ به : لو لم
أكن مصرياً لتثبت أن أكون مصرياً الخ . .